

يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم

كامل زهيرى

الغاضبون

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

رئيس التحرير
حسين فهمي

مدير التحرير
مصطفى طيبة

سكرتير التحرير
جلال عارف

مطابع الأخبار

كامل زهيري

الغاضبون

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة



إلى قارئ جديد



فى الاحلام يشتاق الانسان الى السمو والطيران . ولكنه أيضا يحس بالخوف من الوقوع وهو يرى نفسه أحيانا فى الحلم طائرا ، وأحيانا يرى نفسه وهو يقع فيخاف ويصحو ..

والانسان مفكرا يتنازعه هذان النقيضان : الرغبة فى الطيران والتحليق والتحدى والتعدى . والخوف المقشعر من أن يطير ، فيقع . وهذا الخوف هو الذى يجعله يتعود على أقبح عاداته الفكرية ، وهى التمرد على المألوف . وغالبا ما ينقضى عمر الانسان الفكرى وهو يستند على فكرة ثابتة — متكررة — كأنه يحيا حياته كلها مستندا على عكاز ، وهو يتصور أن هذا العكاز ، أى هذا التكرار هو حزام الامان أو الدواء المسكن للخوف من الوقوع .. أى الخوف من الطيران ، والتعرف على الجديد .

لكن أعظم ما فى الشراذم النابهة من الشعراء والادباء والمفكرين والفنانين أنهم يطيرون بلا خوف ، لأنهم يتململون ، ويقلقون ويغضبون ويرفضون ويجددون .

وأعظم ما في وجدان الشاعر هو الملل ، وأعظم ما في الفكر هو القلق . فالذى يحير هو الذى يحرك . وبداية الحركة هي الحيرة . وتحليل الشيء هو تفسيره . وتفسير الشيء هو الخطوة الأولى لتغييره . وبداية الفلسفة هى الدهشة . وما يثير الدهشة هو غير المألوف ، هو الجديد الذى قد يبدو أول الامر غريبا .

ويمكن أن يسمى هذا الادب الذى أقدمه في هذه الصفحات بأدب الاحتجاج ، أو الادب الغاضب ، أو المغضوب عليه ، لانه أدب رافض ــ متململ ــ ملول ، قلق مقلق متفجر متطاير الشظايا ، بعضها قد يصيب ، وبعضها لا يخيب لانه ينبه ..

ولو عبرت الفكر الانسانى بنظرة طائر ، لوجدت أن الحياة الفكرية حتى في أوج ازدهارها لا تكاد تستقر حتى تتغير ، فلكل جيل كاتبه .. أو شاعره ، أديبه ومفكره وبعد هؤلاء يأتى جيل جديد ومفكر وشاعر وأديب وفنان .

وهذا الذى أقدمه في هذا الكتاب هو لمحات طائرة ــ عبر أجيال عديدة من شخصيات ومذاهب ، قرأت عنهــا ، أو عرفتهــا من بين هؤلاء الذين تململوا ، ورفضوا وغضبوا فغضب عليهم ..

وبعض هذه الافكار والمذاهب غريب ، تعلق بالصعب أو المحال ، فاعتبر أحلاما ، وبعضها كان ضارا أشد الضرر ، أتى بالوبال على أصحابه ، ولكنه أفاد من أتى بعدهم ــ لانه على الاقل ــ أثار سؤالا أو طرح مشكلة ..

خذ مثــلا تلك المذاهب التى أثارت في القــرن المــاضى مشــكلة السلطة والحــرية ودخلت في صراعات محمــومة ومنازعات محتقنة مع بقية المذاهب . لقد انطفأت جميعها

وانفض عنها أتباعها لكنها ما زالت فى تاريخ المغامرات الفكرية الانســانية تشير الى مشكلة باقيــة ومطروحة على ضمير المفكرين حتى الآن ، هى مشكلة السلطان والانسان ..

ولسوف تكتشف من قراءة هـــذه اللوحات السريعــة ـ المبسطة جدا ـ ان كثيرا من الافكار ـ أو الهموم الفكريةـ تثور فى جيل ، ثم تختفى ، لكنها تعود من جــديد فى طلاء جديد ..

مثلا ، هذا الفيلسوف الذى عرفناه هذا العام ، أو منذ عامين على الاكثر : هربرت ماركوس ، الذى سموه فيلسوف الطلبة الغاضبين ، هذا العجوز الذى كان يمكن أن ينزوى حتى آخر حياته بمؤلفاته فى احـــدى الجامعات الامريكية الصغرى ، لقد انتقلت افكاره فجأة عبر المحيط ، وانتشرت فى أوربا ـ كنيران الحطب ـ بين الطلاب والشباب .

أليست هذه الافكار نفسها أحيــاء لافكار ومبادىء كان يدعو اليها جيل السرياليين الاوربيين فى عام ١٩١٤ ، حين تخيلوا امكان التوفيق بين أفكار فرويد وماركس ، لتفسير الانسان وتغييره ؟!

وبعض أفكار جان بول سارتر .. التى لمعت وانتشرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أليست أحيـــاء وانعاشــا وتبسيطا وتجديدا لافكار هوسيرل وهيدجر الالمانيين ، والتى كان يمكن أن تنزوى بين ضفاف كتبهم فى مكتبات الجامعات الالمانية بعد الحرب العالمية الاولى ؟! .

وبعــــد ..

فلقد يجد القارىء بعض هذه الافكار ، أو كثيرا منهــــا ، خاطئة وحمقاء لكننى قصدت أن أبسط بقدر الامكان ، تلك المذاهب الغريبة ، وهذا الادب الغاضب المغضــوب عليه ،

وان ألقى بعض الضوء على الشخصيات الادبية والفنيـــة ، وذلك حتى يتعود القارىءعلى مقارنة المذاهب الغريبةومتابعة الشخصيات المجددة ..

وأردت من تقديم الجديد الجدير ، أو القديم الغريب أن يتعود القارىء على الجديد فى الفكر ، غير المألوف فى الفن .

ويستطيع القارىء بعد هذه الرحلة الاستكشافية أن يهبط الى الارض ويعـود الى ما أمن اليه وتعود عليه من أفكار ومبادىء ، أو يستطيع أن يستأنف الطيران الى الجـــديد البعيد ، فيفسر أفكار المفكرين بالتعـــرف على أشـواقهم وأحلامهم ، لأن الاشواق والاحلام هى الطلائع التى تسبق الواقع .

كامل زهيرى



الشيء الاكيد الذي أكرهه ، على كافة أشكاله ، هو البساطة !.

سلفادور دالي



● سلفادور دالي ●

سقط البساطة

كان الضوء باهتا . وفى أحد شوارع باريس كان أحد المارة يلبس ثيابا داكنة وياقة بيضاء مرتفعة ، وعلى رأسه قبعة عالية ، وفى يده شمسية مقفلة . وكان يضرب بخطواته فى اعتداد وثقة فيسمع وقع خطواته على أسفلت ذلك الشارع المهجور فى تلك الساعة ..

ويبدو أن الرجل كان فى طريقه الى احدى السهرات . فقدكانت الساعة تقترب من التاسعة مساء . ولم يكد يقترب من نهاية الشارع حتى خرج اليه رجل يشهر مسدسا فى وجهه . فتوقف الرجل الانيق والخوف والمفاجأة يعقدان لسانه . وأعقبت دهشته فترة من الانتظار والتوجس . ولكن انتظاره لم يطل ، لان الرجل الذى يحمل المسدس رفع له قبعته بيده اليسرى وهو يقول :

ــ الساعة كام من فضلك ؟! .

وبارتباك نظر الرجل الانيق فى ساعته وأخبره بالساعة ..

وأعاد الرجل مسدسه الى جيبه ، ورفع ذراعه وضبط ساعته .. ثم اختفى .. اختفى بخطوات كالجرى .. وهو يتمتم بكلمات الشكر للرجل الانيق الذى لم يستطع التحرك من الذهول ! ..

ولم يكن الرجل الذى ظهر بسرعة واختفى بسرعة وسأل عن الساعة غير الفنان الكاتب « جاك فاشيه » ..

وانتشرت قصة الرجل الذى هدد أحد المارة بالمسدس ليسأله عن الساعة.. ونشرت الجرائد خبر هذه الفضيحة. وفى المنتديات والمقاهى والندوات الادبية أذاع جاك فاشيه انه أراد من هــــذه « الفضيحة » أن يثير الدهشة ..

والدهشة تثار من ((تدمير الواقع)) المترابط الذى ألفه الناس وتعودوا عليه .. والدهشة هى التى تكسر جليد الحقيقة . وهى البركان الذى يمزق هذه الحقائق المقامة على أرض الواقع . **وعلى الفنان أو الاديب أن يثير بكافة الطرق والاساليب ــ بل والحيل ــ دهشة الناس ..**

ومن تدمير الواقع الذى يثير الدهشة تبدأ قصة طويلة لمذهب غريب اسمه « السريالية » ..

ولكن لماذا يلجأ السرياليون الى اثارة الدهشة ؟ ..

انهم يرون فى ذلك سلاحا ماضيا للاحتجاج على المنطق والواقع!. ويعتقدون انه لا يكفي أن يقتصر الانسان على الواقع الذى يدركه المنطق . ويرون فى النفس الانسـانية أغوارا عميقة لا يفسرها المنطق أو القواعد العقلية التي نوارثناها منذ فلاسفة اليونان والعرب والهندوس والصين ..

واذا كان العالم قد فهم العلوم .. واقام الهندسة .. واكتشف قوانين الطبيعة .. فماذا صنع فى النفس الانسانية ؟ ..

وأين الخيال ؟ .. وأين العقل الباطن وأين الاحلام ؟ .. أليست لهذه كلها تفسيرات .. ووجود ؟ ..

انهم يقولون ان للعلم منطقا .. وللخيال قواعد . وللعقل الباطن عالما وحيزا رحيبا .. بل وللجنون تفسيرا ..

ويؤكدون ما يقولون بأمثلة عديدة عن منطق الخيال ووجوده..

اذا كنت تجلس على مقعد وثير تشاهد احدى المسرحيات ورأيت جريمة قتل يرتكبها أحد الممثلين .. فهل تتحرك ؟.. الحقيقة انك لاتنتفض من مكانك .. أو تهب لتوقف الجريمة أو تضبط المجرم أو تستعين بالبوليس ..

أليس معنى ذلك أن الخيال حقيقة وعالما فى ذهن الانسان .. وهو الذى يجعلك تبقى فى مكانك وترضى – عن طريق المجاز بأحداث المسرحية وبأصوات المسدسات ووقوع الجثث على خشبة المسرح ..

وقد حاول العلم أن يكتشف أغوار النفس وآبارها السحيقة ، فكان على رأس المنقبين العلامة « سيجموند فرويد » الذى اكتشف أن للحلم قوانين وتفسيرات .. وربط الاحلام بالرغبات .. وبعد أن كان العلماء يقتصرون فى تصوير النفس الانسانية على العقل.. واستمر الناس يقنعون بهذا التفسير عدة آلاف من السنين اكتشف فرويد أن هناك عالما آخر غير عالم المنطق والعقل .. هو عالم اللاوعى .. الذى يظهر فى الاحلام .

وقد اصبحت الاحلام بحرا مروضا بعد أن كانت بحر ظلمات..

وجاء فرويد يقول ان الاحلام لا تسيطر عليها الصدفة البحتة.. المرسلة .. وان الاحلام تحقيق لرغبات مكبوتة .. وانك فى الحلم

تحقق ما لا تستطيعه فى الحقيقة .. والاحلام تفجير وتحقيق لهذه الرغبات العديدة التى تكبتها قوانين المجتمع وقيوده ..

فالحلم هو الرغبة .. الصورة ! ..

ولهذه الاسباب فان السرياليين يقولون ان ماتعـودنا عليه من تقسيم فى الظاهر بين الخيال والحقيقة ، أو الحلم والواقع أو العقل والجنون ، أن هو الا تقسـيم مزيف .. جامد : لأنه لا فرق بين الخيال والحقيقة ! ..

واندريه بريتون ، رائد السريالية والشاعر الذى اخترع هـذا الاتجاه الادبى والفنى وبدأه فى باريس - يقص قصة جعلته يؤمن بهذا الافتراض ! ..

يحكى بريتون قصة جندى التقى به أثناء الحرب العالمية الاولى .. وكان الجندى قد خرج من الحرب مجنونا بعد أن ذاق أهوال المعارك .. وتبادل الجندى مع بريتون الحديث .. فاذا بالجندى يحاول أن يقنعه بأن كل هذه الحـرب ليست حقيقة .. فهو فى جنونه يتصور الحرب خدعة « كاموفلاج » .. واصابات الجرحى المددين على الاسرة .. والملفوفين فى الضمادات ليست سوى « ماكياج » وصبغة حمراء تزول بسهولة .. والقنابل «اكسسوار» والحرب كلها تمثيلية متفق على اخراجها من قبـل بين الفريقين المتحاربين ! ..

واكتشف بريتون فى هذا المجنون ـ بل وفى النفس الانسانية ـ قوة مهولة تعاونها على الهرب من الالم .. أى الهرب من الحقيقة المؤلمة .. فعندما يواجه الانسان ما لا مفر فيه من الحقيقة المرعبة المريرة كالعلقم .. الرهيبة كجهنم تندفع فى أعماقه قوة غريبة .. تجعله يصدق أن الحقيقة غير موجودة ، ويصبح الجنون هو الخل وهو المسكن الدائم للحقيقة المؤلمة .. وهذا منتهى الخيال ..



والخيال الجامح هو نقطة البداية فى السريالية ..

وهم يعرفون الخيال كما يقـول رائدهم بريتون بأنه ((**الشىء الذى سيصبح حقيقة**)) ويعطون أمثلة عديدة كان الخيال فيهـا يسمع ويرى بل ويلمس .. فجان دارك كانت ترى رؤى من الخيال وتخاطبها كأنها الحقيقة .. أو لانها الحقيقة ! ..

وقصة الكاتب فلوبير والزرنيخ معروفة .. فقد ماتت زوجته « ايما » من سم الزرنيخ .. وجلس فلوبير يكتب فى احدى قصصه مشهدا تموت فيه سيدة بسم الزرنيخ .. واستغرقت كتابةالمشهد ثلاثة أيام ، أحس بعدها فاوبير بمذاق الزرنيخ لا يفارق فمه أياما عديدة ..

وقصة الفيلسوف مالبرانش عن خادمته معروفة أيضا .. فقد أصيب مالبرانش فى قدمه حتى أدمت .. واعتكف الفيلسوف فى سريره ، ولازمته خادمته الى جوارده .. فاذا بها تحس احساسا أليما بأن قدمها تدمى فى نفس الوضع الذى أصيب فيه سيدها .. والامثلة عديدة يذيعها السرياليون ويقصلون منها أن الخيال يقفز أحيانا فيحتل مكان الحقيقة فى حياة الناس .

ولم يقتصر السرياليون على ركوب الخيال الجامح ، وترويضه لرسم الصور الشعرية سواء كان ذلك فى الرسم أو الشعر أو الكتابة .. بل استخدموا الجنون ووقفوا على حافته وأطلوا عليه.

ولم يقف السرياليون أمام الصدفة مكتوفى اليد .. بل أرادوا أن يكتشفوا القواعد التى تتحكم فى الصدفة ..

وهناك لعبة كانوا يتسلون بها فى مقاهى باريس وندواتها ، اذ يجتمع عدد من الكتاب والشعراء ، ويكتبون على أوراق صغيرة عدة أسئلة ، ويكتبون الاجابات على هذه الاسئلة فى أوراق أخرى .. وفى احدى السهرات اجتمع جمع من الادباء ووضعوا بعض الاسئلة :

ما هو الفجر ؟ وكتبوا الاجابة : هو بزوغ الصباح .

وما هى المرآة ؟ هى ما نرى فيه أنفسنا .

وما هو رجل البوليس ؟ هو حامى الامن العام ..

والسخان الكهربائى : هو أنبوبة مليئة بالماء الساخن ! ..

والحلم : هو وهم النائمين ..

وخلطت الاوراق بعضها ببعض .. وجمعت كل ورقتين : واحدة من الاسئلة وواحدة من الاجوبة ، فكانت النتيجة كالآتى :

ما هو الفجر : هو ما نرى فيه أنفسنا ..

ما هى المرآة : هى بزوغ الصباح ! ..

ما هو رجل البوليس : هو أنبوبة مليئة بالماء الساخن !..

ما هو الحلم : هو مصباح من مصابيح الشوارع ..

ما هو المصباح الغازى : هو وهم النائمين ..

ويقول السرياليون ان هذه التجربة تدل على أن أغرب الصور التى لم يتصورها المنطق ونأنف من تصورها لاننا تعودنا على منطق معين .. أغلب هذه الصور قد يقبلها الخيال ويهضمها ..

فماذا لو قلنا أن الحلم هو مصباح من مصابيح الشوارع ..

وما الغريب فى أن نقول أن الفجر هو مانرى فيه أنفسنا ! ..

ولم يكتف السرياليون بتصوير الاحلام فى رسومهم وكتاباتهم بل وجد المتفرجون فى معارضهم أشياء غريبة شاذة .. وكان شعارهم (أن يخرجوا بأى شىء مألوف يستعمله الناس استعمالا مألوفا ، عما تعود عليه الناس) .

فالمكواة الحديدية لا تستعمل الا اذا كانت قاعدتها الحديدية ملساء ناعمة .. ولذلك نجدهم يعرضون فى معارضهم مكواة « سريالية » لها قاعدة حديدية ثبت فيها عدد من المسامير الغليظة ! .. وفى أحد المعارض يعرض المصور « مان راى » قفصا من أقفاص الطيور وضع فيه قوالب عديدة من السكر ، ويدعو المصور رواد المعرض الى أن يحملوا القفص ، ولكنهم عندما يهمون بحمله لا يستطيعون اذ يجدون القفص ثقيلا ، ثم يكتشفون أن المصور مان راى قضى وقتا طويلا لينحت من الرخام الثقيل قوالب تشبه تماما قوالب السكر ..

وفى حالتى المكواة وقوالب السكر يقول السرياليون انهم خرجوا بهما عن استعمالهما الذى تعود عليه الناس ..

وخلا لهم المجال واسعا فى كتابة الشعر ، وبدأوا ينصحون شعراءهم أن يحاولوا جمع أكبر عدد ممكن من الصور التى لايقبل المنطق أن تكون متقاربة أو متتابعة .. ونجح بعضهم فى تحقيق هذا

الهدف . فهم يكتبون عن الزنجية .. الشقراء .. أو يرسمون ساعة معدنية .. استرخى ميناؤها ولان معدنها حتى أصبح رخوا كالعجين

وانطلق كثـــير منهم يكتب على الطريقـــة التلقـــائية التى لا يجمعها غير خيط رفيع من الارتباط .. ويرسم بريتـــون فى قصيدته المشهورة «السمكة التى ذابت فى الماء» عددا من الصور :

النـــافورات السحرية ، وطيور البحر . وعرق النجوم ، وأنهار الزهر ، والسفن التى تنام فى العاصفة . وصدى المطـــر والدمع ، وحافة الضباب وشاطىء الجزيرة .. الخ هـــذا التتـــابع الذى لايربطه غير الماء ! ..

والسريالية ابنة المحنة النفسية والفكرية التى أعقبت الحـــرب العالمية الاولى . وقد بدأت تجمع فنانين وكتابا وشعراء فى ألمـــانيا وفرنسا وأمريكا خرجوا من خنادق الحرب ! وكان الاوربيـــــون – كغيرهم – يعلقون كل آمالهم على عصبة الامم ، وعلى ايجاد قانون دولى .. ينظم علاقات العالم ، ويضمن السلام ، ولكن الحرب جاءت بنكباتها .. وبارودها وخنادقها .. والذين نجـــوا من الموت فى الحرب لم ينجوا من القلق ، وخرج هؤلاء ليجدوا هذا العالم يسير من جديد .. وكأن شيئا لم يحدث !..

القطارات تسير كما كانت تسير .. والمحطات تبنى من جديد .. والبيوت تقام .. والشباب يجرى كما كان الشباب يجرى من قبل .. والخطب الرنانة تسمع .. وباختصار عادت الحياة كأن شيئا لم يحدث !..

ولعل عودة الحياة الى سيرها المعتاد أذهل هؤلاء الذين عادوا من الحرب وما زال دوى القنابل فى أذهانهم يصمها ويسدها .. وما زال مذاق تراب الخنادق فى أفواههم ..

وقد عادوا بعد أن رأوا أحلامهم فى المستقبل تتفجر وتتنـــــاثر تارة من الالغام المدفونة .. وتارة من القنابل الملقاة من السماء ..

وتجمع فى باريس الشعراء : بول ايلوار ولوى ارجوان وفيليب سوبو ، واندريه بريتون .. من الرسامين جريكو وسلفادور دالى وماكس أرنيست .. وبدأت ثورة السرياليـــة فى عالم الفـــن .. والاخلاق .. والادب .

وبدأوا بتحطيم كل ما يبدو أنه مقدس عند المجتمع .. وأخذوا يؤصلون تفكيرهم .. فوجدوا في تاريخ الشعر شخصيات نموذجية تمثل الثائرين والعصاة والمتصمين مثل بودلير وأرتور رامبو .

بل ذهب واحد منهم الى أن نشر في بيان مع جمهور الادباء : « لتحمل مسدسك .. ولتنزل به الى الشارع وتطلق رصاصاتك على أول من تلقاه من عابري الطريق » ..

وثارت بينهم وبين الادباء الذين تبوأوا مراكز متينة من الشهرة والنفوذ مثل بول كلوديل .. وبدأت بينهم المساجلات والاتهامات .. ونشروا كتابا اسمه « الجثة » ويقصدون بها أناتول فرانس الكاتب العظيم !..

وكتيب آخر عنوانه « خطاب مفتوح الى سفير فرنسا السابق في طوكيو .. المسيو بول كلوديل .. »

وكتبوا كتيبا أسموه « تهافت الشعراء » ثاروا فيه على الشعر الفرنسي التقليدي .. والمعاصر .. وأعلنـــوا انهم يريدون ثورة كاملة تامة مطلقة في عالم الشعر ..

وانطلقت فيهم روح عدمية غريبـة .. وبدأوا كأنهم يحاكمون كل شيء وأي شيء .. يحاكمون ويصدرون الحكم فورا بالاعدام !.

ويقول أراجون في أخدى محاضراته :

« انني ألعن العلم .. ما نحن الا انهزاميو أوروبا .. واننا نبذر بذور البلبلة في كل مكان .. اننا نحن الذين سنمد في الغد أيدينا الى أعدائنا » .

وفي كتاب بريتون « الخطوات الضائعة » يقول الشاعر :

« ان واحدا من المثقفين أو المفكرين لم يكن في مستوى أحـداث عام ١٩١٤ ، ١٩١٨ » فقد كانت الاحداث تلطم المفكرين كما تصدم الامواج الهائلة وجه سفينة صيد صغيرة ..

وتحولت خيبة الامل الشديدة الى غضب وقنوط بل وشتائم ، وبدأوا يعلنون كراهيتهم للعائلة والوطن ، وهم يقولون :

ـ اننا لن ننتقد العالم كما انتقده فولتير .. اننا سنبدأ العدوان على العالم !..

وهم يثورون على المبادىء الاخلاقية المتوارثة .. ويرضعون لبن الماركيز دى ساد ولوتريامون الشاعر الكبير .. وفى أحد الافلام التى كتب قصتها الرسام « سلفادور دالى » يظهر البطل وهو يتأهب للذهاب للقاء حبيبته . وفى الطريق يمر برجل أعمى يريد العبور .. ويفاجأ المتفرجون برؤية البطل يهجم على الأعمى المسكين ويدفعه الى الارض .. ويستمر بعد ذلك فى طريقه الى لقائه الغرامى .

ويعلن بعد ذلك مؤلف القصة الغريب أنه لم يقصد أن يوجع مشاعر المتفرجين .. ولكنه قصد أن يعلن احتجاجه على الاخلاقيات المعتادة .. تلك النصائح التى تكتب على اغلفة كراريس التلاميذ ، فالنصائح التى تبنى عليها أخلاق أبناء الكشافة والتى ينصح بها الناصحون والمنافقون والمدلسون ليست هى الاخلاقيات التى يحتاج اليها المجتمع .

فالمجتمع يحتاج الى بناء أخلاقيات وقيم جديدة .. اكثر عمقا من مجرد اتباع النصائح الجارية والاخلاقيات المتوارثة والخصال الحميدة .. لانك قد تحسن فى العلانية ولكنك تسرق فى الخفاء .

وقد تساعد رجلا أعمى على عبور الطريق ، ولكنك قبل ذلك أو بعد ذلك ترتكب جريمة نكراء .

وقد كان أندريه بريتون هو أعظم أعضاء الحركة السريالية .

فقد دخل حركة السريالزم كثيرون من الفنانين والادباء وخرجوا منها ، ولكنه ظل يدافع عنها حتى النهاية .

دخل هذه الحركة جان كوكتو وجول رومان وخرجا منها لانهما يبحثان عن الشهرة والمجد الادبى كما يقول بريتون . ودخلها أرجوان وايلوار وجورج سادول وأرتو وتزارا وخرجوا منها الى الحزب الشيوعى . ودخلها سلفادوردالى وخرج منها الى الفاتيكان . ودخلها ايمى سيزير الشاعر الافريقى وخرج منها الى البولمان . ودخلها جاك فاشيه وخرج منها الى السماء لانه انتحر ..

ولكن بريتون أسس الحركة السريالية ، وامتزجت فى حياته بمراحلها المختلفة المتقلبة ، وحاول هو أن يمزج فيهما آراءه واكتشافاته .

وقد عاش بريتون أهدأ حياة . أهدأ من فاشيه المتوتر ، ومن تزارا الغاضب دائما . ومن دالى المنفعل ، ومن ايلوار المتقلب . واذا استثنينا فترة الحرب الاولى التى اشترك فيها بريتون ، نجد حياة بريتون هادئة .. ولذلك عاش بريتون حالما .. ومحبا .

فتجربة بريتون أكثرها الى الداخل .. فى الحلم .. وفى الحب . وهو يتحدث فى كتابه « السمكة التى تذوب » وهو من أقوى كتابات السرياليين . يتحدث عن الحب الذى يطالب به السرياليون ويسميه « الحب المجنون » : الحب المدهش الذى يتحدى كل قيد ، ويقلب كل وضع .

ويتحدث كذلك عن الجمال .. ويسميه الملجأ الوحيد للانسان . ويتحدث عن نوع هذا الجمال ، فيقول انه جمال انقلابى .. لا يدع شيئا أمامه الا وقلبه رأسا على عقب .

وكما كان الفلاسفة القدامى يعتقدون أن أصل الكون هو النار أو الماء ، فان بريتون يعلن أن العنصر الاول فى الكون هو الحب .

وفى قصة « ناديا » يقص بريتون لقاءه مع عشيقته . وكيف أن للصدفة قانونا يحكم الرغبات البعيدة . لقد كان يحلم بشىء فوقع له ويحلم بشخص فقابله بالفعل .. واحب ناديا ..

ولهذا ففى أعماق بريتون نوع من التفاؤل بالانسان .. وبأن شيئا لم يضع منه حتى الجنة « فليس هناك فردوس مفقود ، بل كل الجنات الموعودة موجودة » .. هنا فى داخل الانسان .

ولكن أى انسان ؟

الانسان الذى يتعدى الواقع ويفوقه .. ويمكن أن نسميه الانسان الحى الخالد . المطلق .

وهذه بالطبع صورة لانسان لا يوجد فعلا .. ولكن بريتون يبشر به . وهو الانسان الذى تذوب فيه الفواصل بين العقل واللا عقل ، بين الحقيقة والخيال ، بين الحلم والواقع .

وفى أعماق بريتون كراهية شديدة للمدنية الغربية والمدنية المسيحية أيضا .

وفى المرحلة الاولى للحركة السريالية ، التى تأثرت فيها بالداديزم ، كانت السريالية غاضبة .. وثائرة .

ولهذا اهتم بريتون باثارة العصيان ضد المدنية الغربية .. حتى يرفضها الناس .. وفى هذه المرحلة كان يكتب : « افتحوا السجون .. سرحوا الجيش .. لا يوجد شيء اسمه الجريمة » .

واختلطت هنا السريالية بلون من العدمية كما يلاحظ البير كامو اذ يقول : « **انها عدمية .. عصيان دائم ، وتخريب منظم ، وعبادة السخف ، فالسريالية فى بدايتها كانت محاكمة لكل شيء . لا تكاد تنتهى حتى تبدأ من جديد** »

ولكن ماذا بعد العصيان ؟

رأى بريتون أن يخترق حدود الانسان الغربى ـ أو البورجوازى ـ وأن يعبر حدوده الى مدنيات جديدة . ولذلك استهواه فن الزنوج . واستهوته الاكتشافات العلميــة التى قالت ان بعض القبائل الزنجية لا تعرف التفرقة التى نعرفها بين الموت والحياة . وانهم لا يعتقدون ان هناك موتا على الاطلاق . واذا مات فرد من القبيلة اعتقدوا انه انتقل الى مكان وسرعان ما يعود . وانهيـار الفاصل بين الحياة والموت أو بين الحقيقة والخيال هو الذى جذب بريتون الى احترام مدنية الزنوج والاهتمام بها .

ثم دخل بريتون الى داخل النفس ، وعبر حدود العقل ، وتوغل فى اللا وعى . وقد أسعفته دراسات فرويد واكتشافاته عن العقل الباطن والاحلام . فكانت نقطة البدء فى رحلة طويلة حاول فيهـا بريتـون أن يدعو الى تحطيم الفاصل بين الواقع والخيـال ، والحقيقة والحلم !

ولكن ماذا يحدث لو أننا حطمنـا تلك السدود بين الحقيقة والخيال ؟.

يقول بريتون : تحدث الثورة السريالية !

وكما قال ماركس : « غيروا العالم » فقد صاح الشاعر رامبو : « غيروا الحياة » ..

وبريتون لهذا يعجب بالماركسية .

ولكن بريتون احتار : أى الماركسيين أقرب الى نظريته ؟

وأخيرا وقع اختياره على تروتسكى ، الذى ربطتهما صداقة بعد

التقائهما فى المكسيك وقبل اغتيال تروتسكى . وتدعمت الصداقة بينهما لان تروتسكى مغال ينادى بالثورة الاجتماعية « الدائمة » على حد تعبيره .

وعندما انعكست هذه النظرة فى الادب والفن كانت عجبا . فبريتون يرى أنه أديب ضد الادب وفنان ضد الفن وشاعر ضد الشعر . ويقصد بذلك أن الاديب حين ينقل فكرته وشعوره أو خياله الى الورق انما يخرج بها عن حالته الاولية : حالتها الطازجة النابضة الى صياغة باردة .. وتصبح شيئا آخر غير الفكرة والشعور ذاته . **والسريالزم عند بريتون يجب أن تتخلص من الصياغة ، لانها تريد أن تقدم للقارىء الاحساس والشعور والفكرة ذاتها .. كل ذلك « بدمه » .**

وعلى هذه الاسس انشأ بريتون مكتبة يقرأها السورياليون ، ووضع قائمة ممنوعات محرمة على السرياليين تماما كما يضع البابا قائمة الممنوعات على أتباعه .

فبريتون ينصح بقراءة سويفت لجرأته فى الخيال ، وساد لتجرؤه على الاخلاق . وبودلير لانه شاعر رجيم ، ورامبو لانه عبقرى ضائع ، والفريد جارى لانه مضحك باكى ، وفرويد لانه قفز أسوار العقل ، ومياكوفسكى لانه ثائر منتحر .. وغيرهم كثيرون .

بينما ينصح بريتون بتجنب كتابات فرلين ودوديه وكورتلين وبرجسون ودور كايم وكلوديل وبيجى وبروست ومورياك وغاندى ومالرو .. لانهم جميعا محافظون أو متحذلقون أو منافقون !

ويأتى بعد أندريه بريتون الرسام العبقرى سلفادور دالى .

وقد كان سرياليا قبل ان تبدأ الحركة . فى طفولته بمدريد .. نزق وتدلل وحساسية شديدة .

قال : انه تمنى فى السادسة أن يصبح طباخا ، وفى السابعة تمنى أن يصبح نابليون .. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف عن الطموح .. حتى أصبح فى النهاية عبقريا .!

وقد تمنى أن يصبح طباخا ، لان المطبخ كان المكان الوحيد الذى يمنع من الدخول اليه .

وفى السابعة أحب فتاة فى مثل سنه ، كانت عائلتها من الارجنتين وتسكن الطابق العلوى فى منزلهم . وكانت هناك فى غرفتها صورة كبيرة بالالوان لنابليون . وكان يسترق النظر الى فتاته كل غروب، والعائلة مجتمعة تشرب الشاى . وتمنى سلفادور فى ذلك الحين لو كان نابليون .

ويعتقد دالى أن حياته كانت سلسلة متوالية من الاخطـــاء . وأبرز شىء فى تجربته مع نفسه أنه كان يحس فجأة بدافع لا يقاوم ليأتى بشىء مفاجىء يذهل الجميع ويثير الاضطراب .

فى الخامسة كان يلعب مع ابن الجيران ، وكانا يركبـان دراجة صغيرة ، ووصلا الى أحد الكبارى، ووقفا ينظران الى الماء ، واذا به يحس فجأة بدافع قوى من داخله يسيطر على نفسه تماما .. فيدفع ابن الجيران .. ثم يجرى .

وفى السادسة يمرض فيحضر اليه طبيب العائلة العجوز ، ويحس بنفس الاندفاع فيقوم وهو لا يقوى ، ويصفع طبيبه صفعة تدهش العائلة وتجعل الطبيب المسكين يبكى .

وفى صباه يأتى حركات غريبة تدل على الجموح ، اذ يقفز وهو فى السادسة عشرة من عمره من الدور الثانى فى المدرسة ... الى الفنـاء .

وعندما يلتحق دالى بمدرسة الفنون الجميلة يكتشف قوة أخرى فى نفسه هى قوة التوهم والخيال .

كان ذات يوم فى حصة الرسم ، وكان عليه أن ينقل الى لوحته صورة سلم مطبوعة . وانهمك دالى فى العمل حتى مر عليه استاذه، ففوجىء الاستاذ بأن دالى يرسم صورة أخرى . ولكن دالى كان ينظر الى صورة السلم ، ويرسم شيئا آخر .

فقال له الأستاذ :

— ماذا ترسم ؟ انها صورة العذراء !

— العذراء ! . اننى أنقل صورة السلم .

وعرض دالى على استاذه الصورة التى ينقل منها .

— ولكنها العذراء !.

— انها السلم .

واضطر دالى فى النهاية أن يعتذر بعد أن فهم أنه حين ينظر الى شيء ، يتصور شيئا آخر !.

وفى هذه الاثناء تحسس دالى فى نفسه قوة الوهم التى تطغى على الواقع ، والخيال الذى يغطى المرئيات ، وقـوة النفس التى تتغلب على العالم الخارجى . وأخذ يروض هـذه القوة ، فيرسم ويصور ما يهيأ اليه ، وما تهتف به نفسه .. وقد تطورت هـذه الطريقة حتى أصبحت معروفة بالبرانويا الناقدة .

ولكن اخلاصه لفنه ، لم ينجه من الوقـوع فى مآزق نتيجـة اندفاعه الذى لا يروض .

ففى امتحان التخرج ، كان دالى يتمنى أو يفكر فى سؤال معين ويعتقد أنه سوف يجيء فى الامتحان الشفوى .

وعندما دخل غرفة الامتحان وجد ثلاثة أساتذة فظل صامتا لحظة امامهم . وفوجيء دالى بأن الاستاذ يسأله نفس السؤال الذى كان يتوقع أنه سيسأل فيه .

واحس دالى بقوة شديدة تدفعه للوقوف . فوقف قائلا :
ــ آسف . انا لا اقبل أن يمتحننى أساتذة أغبى منى !.

وصعق الاساتذة ، وحولوه الى مجلس تأديب ، ففصـل من مدرسة الفنون ، ولم يحصل على شهادته .

وظل مدة يرسم فى أسبانيا وتعرف بالشاعر جارسيا لوركا ثم فكر فى الانطلاق الى باريس .

وفى باريس قابل دالى ابن أسبانيا الآخر ، بيكاسـو ، وعرض عليه كتلميذ بعض لوحاته قائلا :
ــ لقد أتيت اليك قبل أن أذهب الى متحف اللوفر !.

وتساءل دالى بعد ذلك عن الطريق الذى يمكن أن ينقله من مدينة برشلونة « تلك القطعة من السكر الذائبة فى طبق من العسل » الى قلب باريس « مدينة الطموح » .

وجاءته الاجابة من رسام سريالى مشهور هو جوان ميرو :
ــ المهم هنا أن تكون عنيدا . النجاح هو العناد . العب بعض الالعاب الرياضية ، واشتر لك ثياب سهرة .

ولكن دالي لم يستطع شراء ثياب سهرة بل ولم يستطع شراء طعام يأكله . فقد قطع عنه أبوه كل مساعدة . ووقع في مأزق لان اسمه لم يكن قد عرف .. بعد .

وتعرف دالي بجلا زوجة بول ايلوار السابقة ، وربطتهما أقوى علاقة يمكن أن تربط امرأة برجل حتى انه كان يوقع على لوحاته التي يرسمها بريشته باسمه واسمها معا .

وتمكنت جلا أن تخفف عنه عبء الفاقة . فكانت تساعده وتلهمه .. ويقول أنه كان يرجع الى البيت كل يوم في الساعة الثانية حين يحين موعد الاكل . وكان لا يجد أكلا .. ثم يستريح ، وينزل من البيت .. وهكذا « ظللت أذهب في موعد الغداء ، وأجلس على المائدة ، وأنا أعرف أنه لا يوجد طعام .. ومع ذلك فقد كانت هذه هي السعادة ! » .

ووجد دالي في حركة السريالست حقلا واسعا لطباعه الجامحة وعبقريته الخصيبة .

وجدهم يصورون أحلامهم ؛ فتزعم دالي حركة تصوير الخيال والحلم والهلوسة وغير المعقول ..

واستخدم في تصويره الدقة الفوتوغرافية وخداع البصر . « فالرسم عندي تصوير فوتوغرافي أرسمه باليد للاشياء غير المعقولة المحسوسة ، ولعالم الخيال على العموم » .

وأمكنه أن يخرج بالمنظور أو المرئى الذى تعودنا عليه الى شيء جديد تماما ، رائع يهز العواطف ويدهش الحواس . ففي رسومه زرافة رقبتها مشتعلة بالنيران ، وفتاة تقف تحت جرس الكنيسة ، وفتاة في صدرها درج ؛ وعلى رأسها خضرة مونعه ..

وقد أمكن دالي — على طريقته الاكاديمية الدقيقة ، أن يجسد كثيرا من الاحلام ، حتى أصبحت صوره تقنع بأن الخيال حقيقة ملموسة .. لا غرابة واهمة .

واذا كانت السريالزم قد نبهت الى أن للخيال منطقا وللجنون نظاما ؛ وفتحت أبواب الهذيان والاحلام والهستريا لتصب ما في جوفها من تجارب .. فان دالي تميز بذلك النوع من الجنون ، الذى يطلق عليه « البرانويا » ، وهو الذى يجعل المريض يتصور أشياء وأشكالا غير التى يراها . والمدهش في سلفادور دالي أنه تمكن

من السيطرة على هذا النبع الفياض والقوة الجموح ، وروضها ، ونقلها الى صور جميلة .. بالالوان »

ولم تخل حياة دالى ، بعد أن نجح - من بهلوانية وتصنع .. فكان يدخل المعارض السريالية فى حفلة الافتتاح من النافذة لا من الباب .. وكان أحيانا يهشم الباب الزجاجى بعصاه وسط المدعوين المشدوهين ..

وتعقب كثير من الذين يملأون حياتهم الملل مغامرات دالى المثيرة بكثير من الاعجاب . وأعجب دالى لهذه الشهرة . فحضر مرة احدى المحاضرات فى لندن ، واذا به يلبس ثياب فارس من فرسان القرون الوسطى .. ولكنه فى نهاية المحاضرة لم يستطع الخروج من ثياب الفرسان ، حتى أحضروا له رجال المطافىء .. وهو يكاد يختنق .

ودعته بلاده أسبانيا بعد أن أصبح من أشهر رسامى العالم ، ليلقى محاضرة عن فنه . وحضر الوزراء والفنانون وابتدأ يلقى محاضرته ، وفى وسط المحاضرة صرخ دالى يقاطع نفسه :

ـ لقد انتهت المحاضرة ! .

وأخذ قبعته وانصرف بين ذهول الحاضرين ..

وانطلقت صيحة سلفادور دالى المشهورة : لكى تستطيع أن ترسم يجب أن تكون مجنونا ! ..

وسمع الامريكيون بهذه الاعجوبة الاسبانية . فدعوه الى نيويورك حيث قفزت اثمان لوحاته الى آلاف الدولارات .

وابتعد دالى عن حلقة السرياليست ، الذين اعتبروه خائنا لقضيتهم ، ويسعى وراء الشهرة والمال .. ثم ارتمى دالى بعد أن أصبح فى غاية الثراء فى أحضان الدين ، حيث بدأ يرسم صورا عديدة للمسيح .. ومنها صورة أهداها الى البابا .. وصورا أخرى عديدة .. تعرض فى نيويورك وباريس ومدريد .

ولا يقل بول ايلوار الشاعر أهمية عن سلفادور دالى الرسام ، وقد غير ايلوار اسمه مرتين ، مرة ليدخل الادب ، ومرة أثناء الحرب ..

فاسم ايلوار الحقيقى : أوجين جرانديل . ولكنه عندما انخرط فى صفوف الشعراء اختار اسم بول ايلوار الذى اشتهر به . أما

الاسم الثانى فهو : « جان دى هو » . وقد اختاره عندما كان فى المقاومة أثناء احتلال باريس . وبعد انتهاء الحرب عاد اليه اسم « بول ايلوار » ..

وقد ولد « أوجين » فى مدينة سان دينيس فى شمال فرنسا . وأبوه كان كاتبا حسابيا ، وأمه كانت تشتغل خياطة . وانتقلت العائلة الى باريس فى عام ١٩٠٨ ، ولكنه أصيب بمرض الصدر ، فاضطر الى السفر الى سويسره . وبقى فيها عامين أحس فيهما بالوحدة .

وتفتح شباب ايلوار حين كان الشعر الفرنسى على أبواب أزمة فى الشكل والموضوع . وتعلق ايلوار بأشعار أرتور رامبو وجيرار دى نرفال ، وهما من غلاة الرومانسيين ، وبلوتريامون وجيوم أبولينير وهما من الشعراء المجددين . وكان الادباء المشهورون « الرسميون » يجهلون هؤلاء الشعراء ، فاكتشف فيهم ايلوار ينابيع جديدة للالهام والتعبير ..

وتيقظ ضمير بول ايلوار على مأساة الحرب العالمية الاولى ، اذ جند عند اعلانها ، واشتغل فى البداية ممرضا ، ثم انتقل الى سلاح المشاة . وكتب أولى قصائده .. وفيها رائحة الحرب والموت والرغبة فى انقاذ الحياة ..

ومن قصائده الاولى « ليس أشق من الحرب فى أيام الشتاء ! »

وفى قصيدة أخرى يقول :

« فى كل أرض انسان معذب » ..

« ودماؤك تمزق الارض » ..

« وقد تركوك على حافة احدى الحفر » ..

ولم يكن ايلوار قد اتصل بالاوساط الادبية بعد وكان يطبع قصائده على « الرونيو » ، فاذا وصل الى باريس بعد الحرب ، يتعرف على لوى أراجوان وفيليب سوبو ، ويشترك معهما فى مجلة « ليتراتور » . ويهاجم « تلك اللغة التى لا تنفع الا للثرثرة » ، ويهزأ بالزوائد اللفظية ويدعو أن يكون التعبير مباشرا حتى يكون صادقا وان يحرر من قيد الوزن ..

وفى زيورخ تتكون حركة فنية وأدبية «ارهابية» هى «الدادايزم» تجمع الشعراء والفنانين العائدين من الحرب ، الساخطين على

مأساتها الدامية . ويشترك ايلوار مع تريستان تزارا الشاعر الفرنسي الذي أسس حركة الدادايزم .

ويكتشف ايلوار عالم الاحلام . وتدوى اكتشافات فرويد في الاوساط الادبية والفنية في أوربا . وتتكون حركة السرياليزم التي تعلن أنها تنقب في عالم الاحلام والخيال حتى تعيد للشعر والفن شبابه . ويتقابل ايلوار مع الرسامين المجددين ماكس ارنيست وجيريكو ، وتربطه بارنيست صداقة تمتد طويلا .

ويكتب ايلوار في عام ١٩٢٤ قصيدة « الموت خوفا من الموت » التي يصف فيها قلق العالم ، ثم « عاصمة الألم » التي يصف فيها قلقه الخاص . وينظر إليه على انه أمل الشعر الجديد .

ولكن ايلوار يختفي من باريس فجأة ..

ويحسبون أنه مات .. ولكنه يكون قد سافر الى مارسيليا ، ليركب أقرب سفينة تذهب به الى الشرق الاقصى . ويتجول شريدا سبعة أشهر بين الهند والملايو والهند الصينية وسيلان ..

ولعله كان يبحث عن الهام كالذي وجده جوجان حين سافر الى تاهيتي ورسم أروع صوره، ولكنه يعود من الرحلة فجأة أيضا وهو خاوي القلب فيقول :

ــ لقد كانت رحلة سخيفة ! ..

وعندما يعود الى باريس ، يجد الحركة السريالية قد نظمت صفوفها ، ويجد محركها الاول اندريه بريتون ، قد أذاع البيان الاول للسوريالست ، وتكون الحركة قد دخلت في معارك أدبية مع الادباء القدامى .. واشتبكت في عدة فضائح مثيرة .. وتظهر جريدة تعبر عن الحركة ، وينشر ايلوار فيها «موجة الاحلام» ، ثم يكتب «عندما لا يتوافر الصمت » و « دفاع عن المعرفة » و « حب الشعر » ..

« .. انني أنشد الفرحة الكبرى لانني أغنيك نشيدا
الفرحة الكبرى لانك لي .. ولانك لست لي ..
وتعرفي عليك في براءة ..
فرحة انتظارك ..

أنت يا من تمحين النسيان والجهل والامل .. وتمحين الغياب
وتضعينني فى الدنيا ..
انني أغني للغناء ..
واحبـــك ..

حتى أنشد السر - ويخلقنى الحب . ويكتب لى الخلاص » .

ويشترك ايلوار فى عشرات البيانات والمعارض الفنية . ويكتب مقالات عديدة فى مجلات السرياليين .

وفى غضون عام ١٩٣٠ تعانى السوريالزم أزمة شديدة عرفت بأزمة أراجون . اذ يشترك لوبى أراجون وجورج سادول فى مؤتمر خاركوف الدولى للادباء ، ويعلنان تأييدهما لقراراته ، فيثور عليهما بريتون لانهما يريدان الزام الحركة السريالية بواجبات سياسية ، وهو يريد أن تظل « نقية » على حد تعبيره خالصة من كل التزام.

وينشر أراجون قصيدته المشهورة «الجبهة الحمراء» التى يعلن فيها سخريته اللاذعة المريرة ممن يترددون على مطعم مكسيم أفخم مطاعم باريس - ومن المتحذلقين ، ويتحدث عن ثورة روسيا بكثير من الحماس ..

وينشق اراجون ، وينضم الى الحــــزب الشيوعى .. ويفتح الباب لكثير من السرياليين .. ومنهم ايلوار وتزارا وجورج سادول .. وغيرهم فينضمون فيما بعد ..

ولكن ايلوار يظل بعــــد انشقاق اراجون مخلصا للسريالية ، وينشر قصائدجميلة منها : «الوردةالعمومية» و «العيون الخصيبة» و « هل يمكن للاناء أن يكون أجمل من الماء ! » .

ويتفجر فى أشعار ايلوار حب للحب يشبه القداسة ، اذ يضع المرأة فى قلب الكون ، وكأنه يتعبد فى الجمال .. ويحرر شعره من الاوزان القديمة ، ولكنه يحتفظ بميزة الصفاء والصورة المنطلقة العجيبة وبموسيقى ساحرة تسرى فى عروق كل كلمة ، وتستمر الى آخر القصيدة ..

يقول ايلوار فى ديوانه « عاصمة الالم » :
عيناك عادتا من بلده متحكمة ..
لا يعرفون النظرة فيها ..

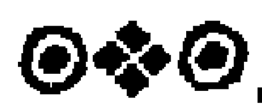
ولا يعرفون معنى الجمال ..

...   .

أقفلت عينى ..
فأصبحت ملكك ..

...   .

وكما يبدو أن روح النهار هو البراءة
فروح الكون أجمع ..
عيناك الصافيتان ..



وضح أن السريالية دعوة لمغامرات نفسية وفنيسة ، ومحاولات لاكتشاف ظلمات النفس ..

فما هو موقف السريالزم من العالم ؟

ماذا يريدون للعالم ومنه ؟

انهم يجيبون ان غايتهم تحرير الانسان .. وبريتون يقول :

ان العصر الحديث قد ولد هيجل وماركس والسرياليـــة .. هيجل كشف دور العقل ، وماركس كشف دور العمل الانسانى ، والسريالية تكشف دور الحرية !.

فما معنى هذه الحرية ؟

يعتقدون أن من حق الانســـان أن يتحـرر من كل قيد .. أيا كان نوع القيد ، وهم أقرب ما يكونون فى ذلك الى الفوضويين .. ولكن السرياليين يقولون أن رامبو ـ أول نجم بزغ فى سمائهم ، كان يقول : ان مهمتنا هى تغيير الحياة ، وهم يقولون : انه لافارق بين كلمات ماركس عن تغيير المجتمع ووصية رامبو .

ولكن الفارق شاسع فى الهدف والوسيلة ..

فالاشتراكية تنادى بتنظيم المجتمع حتى توزع ثمار المجتمـع بين الفرد والمجتمع !.. « لكل حسب عمله » ..

والشيوعية تنادى بتنظيم المجتمع بعد ما يفيض الانتاج ويكفى فيمكن توزيعه « لكل حسب حاجته » ..

ولكن السريالية تطرح جانبا كل هذه النظرة العلمية : وتنادى أن يكون تنظيم المجتمع « لكل حسب رغبته » ..

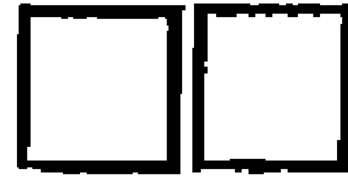
وفرق بين أن يكون محور المجتمع : العمل أو الحاجة أو «الرغبة» .. أليس حقا ما قاله الفيلسوف بيكون :

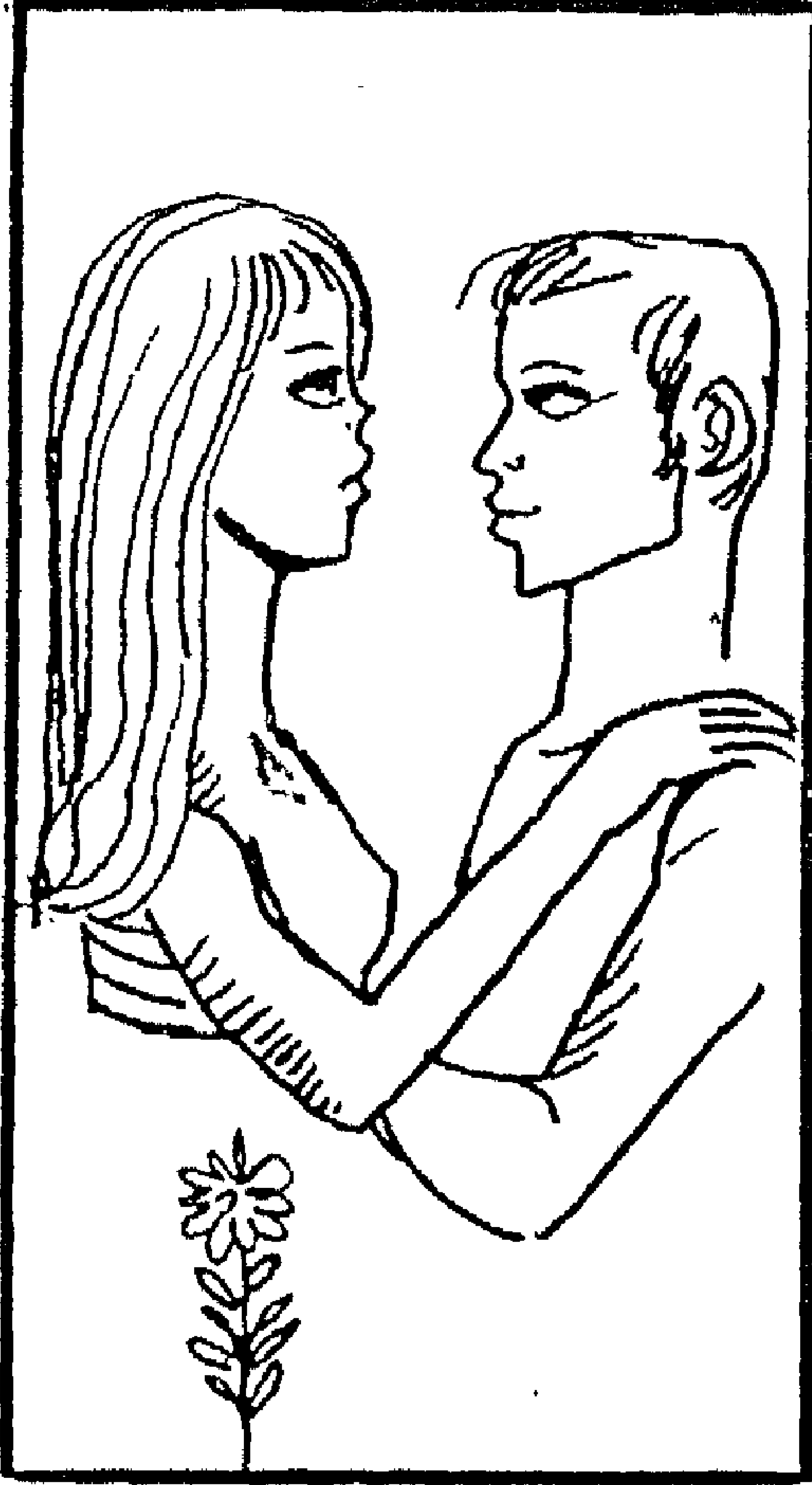
ــ لانك لا تستطيع أن تطلب من الطبيعة شيئا قبل أن تطيع قواعد الطبيعة .

ولكن السرياليين يريدون الثورة والتغيير ، ولا يخضعون لقواعد المجتمع ، وتحرير الانسان سياسيا يحتاج الى عمل وقاعدة وموقف ونتيجة .

أما تحرير الانسان كلية من كل ضغط فهو شيء آخر ..
وهذا هو الطريق المسدود الذى سار فيه السرياليون ...

ولذلك كانت السوريالية كالشهب التى لمعت فى سماء الفكر حينا من الوقت .. وتحولت الى رماد .. أو دخان .. وذكريات.





الحب عندنا يختلط بفكرة الحرام
فى الريف والعيب فى المدينـــة

الحب .. بين الحرام والعيب

تمنيت لو قرأ الشباب شيئا عن تاريخ مصر القديم وتعلقت أنظارهم فى نفس الوقت بالفضاء وتقدم العلوم . وتمنيت الا ينسى الشباب ثقافتهم العاطفية فى الحب . والصحة . والرياضة . وعلم النفس .

فلو أنصف الشباب مستقبلهم ، لتخيلوا اننا مقبلون على مجتمع لا يعترف فيه بفضل أو قدر لانسان ، الا بالعمل والقيمة الانسانية وطريق السعادة فى هذا المجتمع لا يكون بما تملك من مال ، ولكن بما أنت عليه من حال . والحال هنا هو الثقافة والعلم والقدرة على السعادة .

فالسعادة أيضا قدرة ، تستطيع اكتسابها بالجهد والتفاؤل ، وبالعلم والثقافة . والحب موهبة تخلق فينا ، ولكننا نستطيع أن نكبتها ، فنشمئز من الحب ، ونضطهد العاطفة ، ونرميها بما ليس فيها ، ونستطيع أن نحول العاطفة الى متعة راقية رقيقة .

وقد اشتهر فى كتب الادب ما كتبه السابقون من أشعار الحب ، كما اشتهرت قصص المجانين والمتيمين الذين خلدت آلامهم ، فصاغوا من آلامهم أخلد الشعر ، وأعطر السير ، وأنبل المهالك . فالحب ، أحيانا ، مهلكة ، ومقتل للعاشق المخلص الذى يخلص فى عشقه . ولذلك فالحب يرتفع الى أرقى ذرا الحياة ، وقد يصعب سبيله فيصبح قاتلا لا يقبل شفاعة ولا عذرا ولا مزاحا .

فقد يكون ظاهره هو اللهو ، ولكنه فى حقيقته قرب من المعرفة ، واقتراب من أعمق خلجات الانسان . فالذى لا يحب لا يستحق الحياة ولا يستحق شرف العيش . لان الحياة معاناة ، ومن كابدها عاشها ، ومن عافها خرج من الحياة قابضا على الريح أو حاصدا للعاصفة ، والعاطفة عاصفة . وقد تكون نسيما . وبين العاصفة والنسيم تهتز أنفاس الحياة .

وقد كان الجيل الذى سبقنا يهتم اشد الاهتمام بالحب العذرى والعفيف الشاق الذى يؤدى بصاحبه الى الهلاك ، فالموت شقيق الحب . ولا يوجد حب حقيقى الا يقذف صاحبه ، ويجرفه الى الاطلال على ما يشبه الهلاك لو فارقه الحبيب . لان الحب ــ اذا عمق ــ كان هو سر الحياة ، وأكسيرها ، وسر دوامها . ولفرط حساسية المحب لا يستطيع أن يتصور حياة ولا يجرؤ أن يرسل نفسا الا الى جوار حبيبه . فاذا زال الحب ، أو بعد الحبيب ،

أحس أن أنفاسه تنزع منه انتزاعا ، وتعود الى صــــدره كما تعود الاثقال والحجارة ، كأنه يتنفس الحجر الثقيل والقهر القاهر .

وقد شب كثير منا ، وأحاط الكتاب عندنا هذا الحب العذرى بهالات من اللألاء ، ونحتت الاشعار العربية تماثيل ممشوقة من البللور وسط حدائق غناء ــ مدها لنا الخيال في الصباء وبقيت عطرا فواحا حتى بعد أن مضى الصبا وشرخ من الشباب !

ولكن فكرة الحب اختلطت عندنا بالخــــوف . بفكرة العقاب ، والحرام فى الريف ، أو العيب فى المدينة .

والحب ، ككل شيء مقدس ، اختلطت فيه هــذه التحريمات . ولكنها اوشكت لفرط هولها فى خيالنا أن تصيب قلوبنـــا بالخوف والرهبة والارتجاف .. فماذا يكون رأى هذا الجيل القـــادم الذى سيفرض ــ وهذا من حقه ــ ما يكتشفه دون أن يأخـــذ شيئا من نصح الآباء أو الاجداد ؟!

ولا يمكن أن يذكر الحب ــ عند العرب ــ دون أن تذكر رسالة ابن حزم الفقيه المفكر السياسى وعنوانها المشهور «طوق الحمامة» واروع ما فيها انه لا ينقل عن الاخرين ، ولكنه يروى أطــرافا من ملاحظاته وتجربته الخاصة . وهو فى هذا يسبق كثيرين من علمـــاء النفس المحدثين ، لانه ظهر فى أوائل القرن الحادى عشر فى الاندلس وكانت الاندلس على أزهر ما تكون النهضة الفنية والفــكرية ، كما كانت على أشد ما تكون فى الفوضى السياسية والاضطراب فى الحكم وفى مثل هذه الفترات : تبرق بوارق العبقرية ، وتظهــر المؤلفات والكتب النفيسة ، ففى عصور الحيرة يتلفت الناس الى ما يهديهم .. وقد تكون الهداية فى الفكر أو الحكم أو العلم ، وقد تكون أيضا فى أخلص العواطف الانسانية ، وأعمقها مكمنا ، كالحب والعاطفة . ويقول ابن حزم ان الحب لا يوصف . بل لابد من معـــاناته حتى تعرفه . وهو يقترب من تعريف الوجوديين المعاصرين ، حين يقولون أن الحياة كلها معاناة ، ولابد لمعرفتها من القلق بها ، والحيرة معها وفيها ..

ويفرق ابن حزم بين الحب والشهوة ، لان الشهــــوة هى حب الصورة الحسنة ، أما الحب فهو أعمق من ذلك الارتباط الخارجى

فلا يعقل ــ كما يقول ــ ابن حزم أن يحب الانسان من أول نظرة لان هذا الحب شهوة ورغبة . وهو يتفق فى ذلك مع علماء النفس المحدثين ..

ولا يمكن ان يحب الانسان اثنين . فالحب وحدانية .

وعلى الرغم من أن العصر الذى عاش فيه ابن حزم كان يسمح بالجوارى وتعدد الزوجات فانه نبه الى وحدانية الحب .

ولا يختلط الحب بالملل . لان المحب شيء والملول شيء . والملول طالب لهو ومتعة .

فاختلاط الحب بالملل أقرب الى شخصية دون جوان ، هذه الشخصية الادبية التى ابتكرها فى الادب العالمى قسيس اسبانى ، ثم تجردت بعد ذلك من مغزاها الدينى ، واصبحت صورة للهوى والنزوة .

صورة تفزع الاخلاقيين

ولا تشبع هواة النفس الانسانية .

وقد ولدت هذه الصورة الادبية الرائعة فى أسبانيا فى القرن السابع عشر بقلم الكاتب الاسبانى ترسو أى مولينا . ونجد ابن حزم – فى الاندلس أيضا – ينتبه الى هذا الدون جوان العربى ، وكان اسمه ابن عامر محمد بن عامر . وكان هذا الرجل الوسيم الشاب كما يقول صاحبنا ابن حزم : «يرى الجارية فلا يصبر عليها ، ويحيق به من الغم والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، فاذا أيقن أنها له عادت المحبة نفارا ، وذلك الانس ترددا ، والقلق عليها قلقا منها ، ونزاعه نحوها نزاعا عنها .. هذا كان دأبه ، حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات الالاف من الدنانير عددا عظيما وكان مع هذا من أفضل الادب والحذق والنبل والذكاء والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض . وأما حسن وجهه ، وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه .. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ، ويتعمدون الحضور على باب داره .. لا لشيء الا للنظر اليه . ولقد ماتت من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ، فخانهن فصرن رهائن البلى ، وقتلتهن الوحدة .

واما اخوانه ، فانه تبدل لهم فى عمره – على قصره – مرارا .

وكان لا يثبت على رأى واحد . حينا يكون فى ملابس الملوك ، وحينا يكون فى ملابس الفتاك ! »

والعجيب أن هذه الصورة التى رسمها ابن حزم لدون جوان الاندلس ، نجد كثيرا من ملامحها تتكرر فى أسبانيا بعد خمسة قرون حين يكتب ترسو أى مولينا مسرحيته المعروفة « ضيف التمثال

الحجرى» ، اذ يبتكر هذا الاديب الاسبانى نموذجا لنبيل ؛ قيل انه عاش أيضا فى عصره ، وكان من حكاياته ونزواته وفضائحه ، ما الهمه الكثير من الوقائع ؛ التى سجلها وحورها فى مسرحيته .

فدون جوان الاندلس جميل مهيب نبيل ذكى متوقد . وهو الى جمال صورته وطلعته وغد الحديث ، عذب المراوغة . بل ونرى فيما يرويه ابن حزم بعض الشبه بين النموذجين فى حب الدون جوانين للتنكر فى ملابس غريبة !

فالرجلان تتفجر فى جوانبهما العاطفة القلقة التى تكاد تودى بهما

وكما يقول دون جوان فى المسرحية : الحب اشبه شيء بالطفل . يقلقه المضجع اللين . ولهذا فدون جـــوان شخصية قلقة مقلقة . ولكنه فى المسرحية شخصية ضارية فتاكة يفتك بالاميرة والقروية . ويتقلب بين الكبرياء والحساسية ، وبين الادب والقسوة . طريد مطارد . تلقيـــه عاصفة على الشـــاطىء . ويشرف على الغرق . فتلتقطه ــ ويا لسوء طالعها ــ صيادة شابة . ناضرة الاهاب . فيسمعها أعذب الاحاديث وأكذبها . تراءت له كالحيـــــاة ــ فهى منقذته ــ ولولا يدها لغــرق فى لجة الموج وطوته دياجير الموت . فيسمعها خفقة من خفقات قلبه الحبيس . وتتغنى له بشرفها الذى يشبه الزجاج . تبقعه ولو انفاس الفراش وتجــرحه ادق الاظافر وانعم الايادى !

فاذا بدون جوان كالبازى ، خادع شرير . لا يرعى حرمة لكوخ ولا لقصر . فهو فى قصر الامـــــيرة الغنية مراوغ نذل . وفى الكوخ مراوغ ناعم !

ثم يمضى دون جوان فى طريقه الى اشبيلية ، وقد ســبقته سمعته المترنحة . واذا به يسمع من احــد اصدقائه ان من يحبها لاتحب زوجها المقبـــل .. فاذا به يتخفى فى جوقة موسيقيين . ويتنـــكر كصاحبنا الاندلسى ــ فى ثياب المركيز ، ويحاول خداع الفتاة .. فاذا بها تصرخ مستنجدة لشرفها . فيفزع أبوها العجوز .. واذا بدون جوان يســـتل ســـيفه ليقتل المركيز . ويهوى العجوز ، فينزل عليه اللعنات . وهو يحتضر . ودون جوان يروغ كالعادة ، ويبتعد عن القصر ؛ تاركا جثـــة الشيخ ، ويمر باحــدى القرى ؛ فيسمع عن عرس لاحــدى القرويات ، فيرحب القــرويون بهـــذا الســـــيد المهيب "الطلعــة ، الرشـــــيق اللحظ ، الا الزوج الذى يتطير منـــه ..

واذا بخادم دون جوان يستعد له بالخيل القوية ، حتى يهربا جها ، حين تقع الواقعة ، لانه أدرك أن سيده لن يترك القروية فى سلام . فكل قصة عنده الى نذالة ، وكل مغامرة الى فرار .

ودون جوان لايضيع وقتا . فهو يتسلل الى قلب القروية يلتقط اليها من السماء النجوم . ويقدم لها من المعسول ما يخلب العقل ويثير الوجد ويفك العظام . رجل مدرب وفتاة خام ! وهو يعد نفسه بلحظة حب ، مثل الابد . ليس لها غد .. يموت لو لم يفز . فاذا بالصبابة تسيل من لفتاته وغمزاته الذكية . معذب ولهان . مجنون وشحاذ من النبلاء . يشحذ المجون والجنون . فاذا استسلمت مسح قلبه كما يمسح الاكول فمه ، يستسلم لنوم ثقيل ، أو تعسيلة البطنة ، لا يريد أحدا أن يوقظه أو يطالبه بالحساب ..

ولكن دون جوان لا يحيا بلا عاقبة فسحب الاثام التى غرسها فى كل سماء وأرض . من ايطاليا الى اسبانيا وفى القصور والاكواخ . ومع الاميرات والقرويات والصيادات ، وبين الحريصة المتشككة ، والدلول الساذجة ، كلها تتجمع نذر شر فوق رأسه .

وتقول مسرحية الكاتب الاسبانى ان هذا التمثال الذى أقيم للشيخ الذى قتله دون جوان ، حين فاضت روحه من طعنة سيفه الغادر ، يعود الى الحياة ليدخل على دون جوان فى الظلام .

ويجلس التمثال المرمرى على مائدة دون جوان .

فاذا بالشيخ شيخ يتكلم بصوت حشرجى آت من الظلمة السحيقة .. واذا به — فى نفس الوقت — يتناول الطعام كما يتناوله البشر من الاحياء فيكاد دون جوان يطير صوابه .

ويدعوه الشيخ الى زيارته فى الكنيسة ، فيذهب اليه ، فيدخل على الشيخ الذى يمد له مائدة وسط القبور ، فاذا بالمائدة مليئة بالافاعى ، واذا بأصوات رهيبة ثقيلة ، ضخمة الرنين ، تأتى اليه من جوف الكنيسة :

— كل موعد وكل دين له وفاء ..

واذا بالشيخ التمثال ينهض .. ويمد يده الى يد دون جوان .. فيحرقها ، وهو يقول :

— هذه عينة متواضعة من نار الجحيم يوم الحساب .

ويطلب دون جوان الرحمة . ذليلا ، فلا تقبل له توبة .

ويخر فوق المسرح محترقا ، يبتلعه القبر والنيران

وهكذا تنتهى قصة دون جوان الاسبانى ، أمير اللذات العابرة الى حساب عسير . فهو لم يلتفت الى ندر الحساب التى مرت فى حياته حين غرق ،ونجا ، وحين هرب ، ولم يلحق به أحد .

وتنتهى قصة دون جوان — الاصلية — الى العذاب . فقد كتبها قسيس ، والبسها ثياب الحرام والتحريم . وان كان الادباء — من بعده — خلصوا الاسطورة من هذه العاقبة ، وكتبوا فيها عشرات المسرحيات والكتب ..

والذى يهمنا ان اسطورة دون جوان التى ظهرت فى اسبانيا ، وتتنازعها ايطاليا أيضا ، انما ظهرت مثيلتها فى الاندلس ، فى عصر شبيه بعصر النهضة وعصر الامراء والوجاهة والفروسية .

وقد رسم ابن حزم هذه الشخصية الملول ، الهلوك على اللذات الصغيرة العابرة .. ولا دهشة فى ان يظهر قبل دون جوان اسبانيا دون جوان آخر من عند العرب ، وأن تظهر بعده هذه الصور العديدة لدون جوان حتى فى عصرنا الحديث ..

والمهم ان المؤلف قد استهجن هذا النوع من الحب الذى هو ليس بالحب ولكنه وجد مرهق مخلوط بالخوف من الموت ، والخوف من كمد الوحدة ، مغموس فى انانية ، وافراط فى النرجسية الرعناء !

فبين الحب العذرى والحب الدون جوانى ذلك الحب الناضج الذى يختلط بالعفة ، والوحدانية فى الحب ، فالحب العذرى تطرف والدون جوانى تطرف أيضا .

وقد بدات الدون جوانية فى الادب على هذه الصورة التى تنتهى دائما الى العقاب والاستهجان .

واشار المقفع فى كتابه «الادب الكبير» الى هذا الميل الدون جوانى ، واستهجن أن يدفع الطمع الى هذا اللون المفرط فى القلق العاطفى والتنقل بين النساء ..

وسارت أسطورة دون جوان عبر القرون ، تظهر فى الادب الرومانسى ، حتى عصرنا الحديث . فكتب عنها موليير وبيرون والفريد دى موسيه وتيوفل جوتييه واذموند روستان وهنرى باتاى وغيرهم كثيرون عديدون .

وقد تخلص ادباء عصرنا من هذا العقاب الدينى الرهيب الذى ينزل بدون جوان ، فرسموا صورة دون جوان وتوغلوا فى داخل

نفسه . وحسبوا عليه هواجسه فاذا به مظنون فى عقله أو طبيعته المفرطة ، ولعل أروع صورة لعقاب دون جوان ، هى التى رسمها انجمار برجمان ، المخرج المعاصر ، حين صور دون جوان وخادمه، وقد نزلا من الجحيم الى الارض .

فالقصة عنده تبدأ من نهاية قصة دون جوان الحقيقية ..

اذ يقرر الشيطان ان يعفو عن دون جوان ، وعن خادمه — لما له من طول الباع والخبرة فى فنون الحب ومكائده، اذ استطاع ان يغوى فتاة ريفية عذراء أبية كل الاباء : حاول الشيطان أن يغويها بكل الوسائل ، فلم تنفع غوايته .

واذا بالشيطان يقرر — آخر الامر — ان يلجأ الى دون جوان ، وهو ضيف الجحيم ، فيقرر أن يرسله الى الارض فى بعثة اغواء واغراء .. ويعده الشيطان ان يرفع عنه عقاب خمسمائة عام من المقام فى الجحيم ، لو تغلب على هذه العذراء المتكبرة .

فيرضى دون جوان ، وينزل الى الارض ، وتمطر السماء ، فيستنجد ببيت الفتاة . ويدعوه ابوها الشيخ الطيب، ويستضيفه ويكرمه .

واذا بالفتاة حالمة أرق مايكون الحلم ، شفافة ، كالملاك ، رقيقة كظل الورد ، وضاءة الوجه ، لاتكاد تختفى من وجهها ابتسامة حتى تضيء ابتسامة أخرى .

والقصة الجديدة تروى كيف ظل دون جوان ساهرا مع الفتاة ، بعد أن نام أهلها ، واغوى خادمه امها ، فاذا بالفتاة تحكى له الاقاصيص ، مثلما حكت شهر زاد لشهريار الحكايات الرقيقة التى أنامت فيه الذئب المولع بالدم والقتل والفتك . فاذا بهذه الفتاة الرقيقة تأخذه بسحرها ، فيحس دون جوان — لاول مرة — فى حياته بوجيب الحب الحقيقى . حب عفيف ليس وراءه طمع . وينسى دون جوان بعثته ، وتنقضى الرحلة ، ولا يطيق أو يجرؤ على خداعها .

فاذا بالخادع الماهر ينقلب الى محب عاشق كتوم .

ويضطر دون جوان الى النزول من الارض الى أعماق الجحيم ، راضيا بالخذلان والخيبة .

وكأنه يتعرض لعقاب أشد من عقاب الجحيم مئات السنين .

ويريد المؤلف أن يقول : ان الحب المخلص يصبح — مع بعد الحبيب — عقابا أشد عذابا من القرار فى جوف الجحيم !



على ، وعلى البورجوازيين
يا رب ..

((باكونين))



الفوضوي
و القيصر

في باريس شارع طويل ملتو منحدر قذر فقير اسمه : شارع مفتار .. لايزال على حاله حتى الان ..

ولكنه كان منذ أكثر من ستين عاما مركزا لجريدة « الثـورة » الفوضـوية .

ويصف أحد الكتاب مقر هذه الجريدة ، فيقول : انه صعد الى بيت قديم به أربعة أدوار . وعندما وصل الى الدور الرابع وجـد دورا آخر يؤدى اليه سلم خشبى ضيق .. وهنـاك وجـد باب الجريدة مغلقا وقد كتب عليه : « ادفع الباب .. لايوجد جرس ! »

ودخل .. فوجد أكواما عالية من الجرائد والمجلات والاوراق ، وكرسيين .. ومائدة تتكون من لوح واحد خشبى فوق قائمتين من الحديد .. ووراءها كان يجلس الفوضوى كروبتكين .

ولم يلمح الزائر فى محدثه الفوضوى شيئا غريبا . كان صـوته هادئا وملامحه متصوفة وعيناه باسمتين .

وقال له كروبتكين أثناء الحديث :

ــ « ان العمل مذهبنا .. والعلم الحديث الوحيد الذى يجب أن يتعلمه الفوضوى : هو الكيمياء ».

فسأله الكاتب :

ــ ولماذا الكيمياء بالذات ؟

وقال له كروبتكين :

ــ حتى يستطيع أن يصنع القنابل بنفسه ؟

... ليس بيننا وبين البورجوازيين صلة .. ويجب أن يكون علمنا هو الثورة الدائمة .

ولقد دوت هذه الثورة فى عواصم أوربا المختلفة فى أواخر القرن التـاسع عشر !

دوت فى فرنســا ، حين قتل رئيس الجمهـــورية ، سادى كارنو وهو يفتتح أحد المعارض الصناعية فى مدينة ليون . اذ صعد الى عربته التى تسير فى أحد شوارع المدينة، أحد الفوضويين الايطاليين واسمه كازيريو ، وانهال عليه طعنا بخنجر مسموم وأخذ يهتف :
ــ تحيا الثـورة !

ومات رئيس الجمهورية ..

وانتفضت أوربا على موجـــة من الارهاب المفـاجيء للشخصيات السياسية البارزة ، وكان الفوضويون ينادون :

ـ اضربوا الرأس فجأة حتى لايضطرب الجسد ..

فهذه الوحشية المفاجئة هى التى تقتحم على الشعب سباته العميق المخدر .. وتوقظه بسلسلة من المؤامرات المجنونة ولكى تحمله على الايمان وتقوده الى النصر .

وتكونت فى اسبانيا عصابة اليد السوداء الفوضوية التى اغتالت رئيس الوزارة الاسبانية .

وبعد ذلك بعام واحـد قتل الفوضوى الوشيزى الامبراطورة اليزابيث امبراطورة النمسا ..

وفى ايطاليا اغتال الفوضوى بريس الملك امبرتو ملك ايطاليا .

وبعد ذلك بعـام ، عبرت الفوضـوية المحيط الى أمريكا .. فقتل أحد الفوضويين رئيس الجمهورية الامريكية .

وتمنت الفوضوية أن يكون رؤساء الدول رأسا واحدا ، فتقطعه .. وتستريح ! ..

وعرفت حركتهم باسم « الدعاية للمبدأ بالجريمة »

ولم يقتصر احتجاجهم على الاغتيال .. بل اعتمد على الهـدم والقاء القنابل على المبانى الضخمة والآثار الهـامة .. والاماكن العـامة ..

ويقول الفوضويون فى بيان أذاعوه :

« .... لن نحترم أى أثر يمت الى الماضى ، فأى تمثال يشير الى الماضى سنهدمه بلا ألم ولا ندم .

أن مهمتنا هى احالة هذه المبانى الضخمة الى خرائب .

ان كنيسـة نوتردام .. قطعة فنية رائعة البناء حقا .. ولكن لا تأخذكم بها رحمة . بل اجعلوها أثرا بعد عين .

لا ترفقوا بعلماء الآثار الذين قد يجيئون بعدكم .. وقد يتحسرون لان كنيسة نوتردام اختفت من على الارض » ..

وتشعب نشاط الفوضويين فشمل السرقة أيضا ..

وهناك فوضوي ايطالى اسمه « بينى » تخصص فى السرقة واشتهر بأنه يسرق ليعطي الفقراء .. وليمول الحركات الفوضوية .. وانه يعيش على الكفاف .

وتخصص بينى فى السطو على الكنائس والاديرة المتخمه بالتحف والمجوهرات والايقونات والصلب الذهبية .. وكان يتتبع النذور والهدايا بحذق .. ويسرقها بدهاء ..

ولما توسع فى مشروعاته قال عن نفسه « انه قرر ان ينزع ملكية البابا »

وكانت محاكمات الفوضويين تتيح لهم فرصة لاذاعة مبادئهم ، والدعوة لها .. وكانوا لا يعبأون بقضاتهم ومحلفيهم .. ويسمونهم « تجار الظلم » .

وكانوا غالبا يتهمون متهميهم ، ويحاكمون قضاتهم .. اثناء المحاكمة .

ولعل ثبات جنان الفوضويين كان له أثر كبير فى الدعاية لقضيتهم .. فقد كان أغلبهم يتسم بمسحة من التصوف والتهور .. والاستعلاء .

ومنهم من استقبل الموت وهو يغنى بعض الاغانى المنغمه تنغيما طروبا ، ولكن كلماتها تقطر سما ودما :

اذا أردت ان تكون سعيدا

فباسم الاله

اشنق صاحب الملك الذى تسكن عنده

ومنهم من خرج من زنزانته ، وسار الى غرفة التنفيذ ، وهو لا يرفع رأسه عن كتاب « دون كيشوت » للكاتب الاسبانى سرفانتس : كان قد بدأ فى قراءته قبل أن يدعى الى تنفيذ الحكم ، فظل يتابع قراءة البقية .. حتى قطعت رقبته !

وتيقظت الحكومات الاوربية الى هذه الموجة الداهمة من الاغتيال والارهاب والسرقة والهدم .. فساقت العشرات منهم الى

الحاكمة .. أو الى المقصلة .. وصادرت جرائدهم ، ومنعت اجتماعاتهم .. وضيقت عليهم الخناق .

ولكن الفوضويين لم يعدموا طريقة للدعاية ، ووسيلة للانتقام ..

ذهب أحدهم الى ميدان الجمهورية بباريس ، وصعد الى أعلى فانوس من فوانيس الميدان وربط ذراعه بالعمود بسلسلة من الحديد ، واقفلها بقفل ، وأودع المفتاح فى جيبه ..

ثم أخذ ، وهو فى وضعه الغريب ، يدعو الى الفوضوية .. وتجمع الناس .. وحضر البوليس . ولكنه ظل يدعو لمذهبه . والبوليس يدعوه الى النزول ، فيرفض .. واحضر البوليس فى النهاية سلما ، وصعد اليه .. ولكنه لم يجد المفتاح .. وظل الفوضوى يتكلم .. ورجل البوليس يبحث عن المفتاح .. حتى أتم الفوضوى خطبته . ونزل .. مقبوضا عليه ..

وانتشرت موجة الفوضوية فكان منهم صبية لم يبلغوا بعد سن الرشد ، ونساء صغيرات ، وراهبات ، وعمال ، وأمراء سابقون .

وفى خطاب لسانتى الذى لم يبلغ العشرين من عمره يقول لامه :

ــ لقد قتلت بنفس القلب الذى أحببتك به يا أماه !

وسيقال عنى أنى شيطان رجيم أو مجرم أثيم أو مواطن فاشل .. ولكننى قتلت لاننى لم أجد فى هذا العالم أى أمل ..

وانتشرت فرق فوضوية .. من روسيا الى أسبانيا .. ومدت نشاطها حتى أعماق القرى البعيدة .

ففى فرنسا وحدها انتشرت عشرات الجمعيات الفوضوية التى اختارت أسماء غريبة .

ففى باريس تجد « الجماعة الدولية » و « العلم الاسود » و « أبناء الطبيعة » و « طليعة العمال » ..

وفى مدن فرنسا الاخرى تجد : جماعات « مهما يكن » و « الاشغال الشاقة » و « المنتقمون » و « الارض والاستقلال » و « عديمو الاهل » و « المفلسون » و « الفلاح الجائع » و « المتقززون » و « قلوب من حديد » و « الديناميت » .

وقصة الفوضوى الفرنسى دوفال تعطينا مفتاح التفكير الفوضوى .

كن دوفال قد سرق منزل احدى الممثلات المعروفات ، ثم اشعل الحريق فى أثاثه .

ودهمه البوليس ، وكان رجاله يقولون حينذاك جملة تعودوا عليها وهى :

ـ اننى أقبض عليك باسم القانون !

وعندما حاول أحد الضباط القاء القبض على دوفال قال له هذه الجملة التقليدية ، فاستل الفوضوى خنجرا وأخذ يطعن به الضابط وهو يصرخ فيه :

ـ انت تقبض على باسم القانون ، وأنا أقضى عليك باسم الحرية !

مشكلة القانون .. والحرية : هما مفتاح الفوضوية ..
فالقانون الزام وقيد على حرية الفرد .

والحرية عند الفوضويين حرية بلا حدود ولا قيود .. والقانون يمثل الدولة عدوة الحرية .

وعداء الفوضويين للدولة عداء صريح ، يرجع الى أيام «جودوين» اول مفكر فوضوى ظهر فى انجلترا .. وتفكيره لون من الفوضوية العقلية ..

ذلك أن الفوضوية اتخذت سبيل القتل والهدم فى فترة هامة من حياتها ـ ويطلق الفوضويون على هذه الفترة «العصر الذهبى للفوضوية » . ولكن الفوضوية اتخذت اشكالا مختلفة وتلونت بألوان المفكرين ، واختلفت باختلاف العصور التى ظهرت فيها ، والشخصيات التى مثلتها .

فجودوين المفكر الانجليزى ظهر فى انجلترا أثناء حدوث الثورة الفرنسية . وقد تأثر بالثورة الفرنسية ومبادىء حقوق الانسان . وقد كان لهذه الثورة دوى هائل داخل بريطانيا . . بل ان بعض الثوار الفرنسيين كانوا ينادون بارسال قوات لتحرير بريطانيا من ربقة الارستقراطية والاقطاع . وقد أثارت الثورة الذعر فى صفوف الارستقراطيين والهلع للدماء التى أريقت ، وقام أحد الكتاب واسمه «بيرك» يندد بالفظائع الدامية . وفى كتابه : «نظرات على الثورة الفرنسية » ينعى ويرثى شهيدة الارستقراطية .. مارى أنطوانيت !

ولكن بعض المفكرين تحمسوا للثورة ومبادئها . ومنهم توماس بين الذين كتب « حقوق الانسان » ليرد على بيرك . ومنهم أيضا جودوين الذى كتب كتاب « بحث فى العدالة السياسية وأثرها فى الفضيلة والسعادة الاجتماعية » .

وفى هذا الكتاب يبشر جودوين بعالم جديد ، يتخلص من الملكية ومن الدولة ، ويبنى على الارادة الحرة والرضا التام بين المواطنين ..

ويشتبك فيه جودوين بنبى التشاؤم الاقتصادى مالتس الذى ظهر فى نفس الوقت بنظريته التى تقول ان العالم مهدد بزيادة السكان ازديادا خطيرا ، ما لم تنقذه حرب أو مجاعة أو وباء .

وقد أصبح كتاب جودوين عن العدالة والفضيلة والسعادة انجيل الشعراء الرومانتيكيين .. وتغنى به كولدينج ووردويرث .. بل وفكر بعض الشعراء أن يهاجروا الى أمريكا لكى يحققوا أحلام جودوين على الطبيعة ..

ولكن كيف كان جودوين فوضويا !؟

ان جودوين ينادى بالثورة على الاقطاع والارستقراطية والدولة التى تمثلهما : وبالعصيان أيضا على الزواج والعائلة .

وكان يقول : « ان الزواج قانون من اسوأ القوانين .. وملكية من أقبح الملكيات ! » .

وجودوين يرى أن الدولة سواء أكانت مستبدة أم ديمقراطية فانها تتنافى مع العقل . وهو يدعو الى تخليص العقل من كل القيود والشوائب والعوائق . ويرى «أن كل حكومة شر» ، وان الاعتراف بالحكومات تخل عن العقل .

ويرى الملكية فى بلاده موزعة توزيعا جنونيا : فالمحرومون لا يتمتعون بالعقل ، لانهم لا يرفعون رؤوسهم عن التقاط فتات الرزق كل يوم .. والاغنياء أفسدت اللذائذ رؤوسهم ، لان تكديس الاموال يطفىء شرارة العبقرية ، ويغرق أكثر الناس فى الهواجس التافهة .

وهو لهذا يدعو الى أن نعاد تنظيم المجتمع ، فيقسم الى مجتمعات أصغر ما يمكن ، يعيش فيها كل الافراد الذين يجمعهم التعاون الحر العاقل الراضى .. ولايربطهم غير الرضا والارادة الحرة ..

وجودوين هنا يحلم حلما فوضويا .. فلقد كان ثوريا أكثر من الثورة الفرنسية . وساعده على انطلاق أحلامه انه كان بعيدا عن معاناة الثورة .. لم يصطدم بالمتاريس ولم ير الدماء ولم يوجه نداء او ينفذ أمرا .. وهذا البعد عن الحقيقة الواقعة أثر فى انطلاقة مع أحلامه ، يقتطع منها ، ويبنى عليها ما يريد ..

وهو يعبر عن ذلك الحلم بكلماته الحماسية عن الثورة الفرنسية « ... أول ما فكرت هو أن اكتشف منجما لم يكتشف من قبل : وان استخرج منه صخرة صلبة فريدة تسحق بوزنها وصلابتها ورسوخها كل مقاومة . وعليها ابنى مبادىء الثورة بناء ثابتا خالدا الى الابد .. » .

والحقيقة ان بذور الفوضوية ولدت مع ميلاد الراديكاليه والفردية التى دعا اليها جان روسو فى كتابه العقد الاجتماعى . وقد تأثر جودوين بهذا الكتاب ـ كغيره من الكتاب الانجليز ..

فروسو يقول ان ما يربط الناس فى المجتمع هو التعاقد الحر . ونتيجة ذلك أن الذى يعقد عقدا حرا ، يستطيع أن يفسخه برضاه ايضا ..

والا .. فلماذا يسمح للمتعاقد الفرد أن يفسخ عقده مع الفرد الآخر ، ولا يسمح للفرد أن يفسخ عقده مع المجتمع ؟

وطبيعى أن فكرة روسو مجرد فكرة افتراضية . ولكنها فى ذلك الحين كانت محركة للثورة الفرنسية التى ثارت على الحقوق والارتباطات القديمة .. والقيود التقليدية .. ونادت بايجاد علاقات جديدة من نوع جديد .

ومع ذلك فالفوضوية لم تقو جذورها الا بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما ..

ففى حوالى عام ١٨٤٠ .. انطلقت الافكار الفوضوية كالوحش الكاسر .. أو كالفيضان الخطير .

وهنا ننتقل الى بروسيا :

ففى برلين حوالى عام ١٨٤٠ عششت الفوضوية بين تلاميذ هيجل الذين اطلقوا على أنفسهم « اليسار الهيجلى » .. وانطلقت من صفوفهم أفكار جديدة بجذور جديدة وآمال جديدة .

بدأت هذه الافكار من خيبة الامل فى الثورة الفرنسية ، فبينما كان هيجل يرى ان أمل الانسان قد تحقق فى اثناء الثورة .. كان تلاميذه يقولون :

لقد تغير الطغاة ولكن الطغيان لم يتغير ! . .

وقد تأثر هؤلاء التلاميذ بمنهج هيجل فى التفكير ، ولكنهم طرحوا تفكيره عن الدولة ، ذلك لان هيجل كان يعتبر الامل الكبير هو تحقيق الدولة البروسية . . . وعلى رأسها القيصر . .

وعند باكونين تفجرت أفكار هيجل ، واخذت اتجاها جديدا . وقد عاش باكونين واشترك فى « نادى الاحرار » ببرلين الذى كان تردد عليه كارل ماركس وفريدريك انجيلز وماكس شترنر .

وباكونين من ابناء السادة فى روسيا القيصرية . كان أبوه ملحقا فى السفارة الروسية بنابولى وفلورنسه .. والتحق هو بالمدرسة الحربية ــ شأن أبناء الثراة ــ وتخرج ضابط مدفعية ..

ولكنه استقال بعد تخرجه بثلاثة شهور ، وسافر الى موسكو .

ويقول أحد المؤرخين ان سحق الثورة البولندية عام ١٨٣٠ : وبولنده كانت تابعة لروسيا حينذاك ، ومرأى الارهاب هز قلب الشاب ، كما اشعل فى قلبه روح الكراهية للنظام الاستبدادى ، وجعله يستقيل ! .

وفى موسكو بدأ باكونين يتعرف لاول مرة على افكار هيجل والمثاليين الالمان التى كانت تغزو كل الصالونات الادبية والاوساط الفكرية فى روسيا . .

وعندما سافر باكونين الى برلين تعرف على أفكار فختة وكانت وشيلنج ، وتابع دراساته فى التاريخ والفلسفة واللاهوت .. بل وفى التصوف . .

وبرلين كانت نقطة تحول فى تفكير باكونين .

لقد كان فى البداية يؤمن بالنزعة السلافية العنصرية ، وهى تيار فكرى ظهر فى روسيا يدعو الى الوطنية السلافية والى تكوين امبراطورية شرقية على رأسها قيصر مستنير ، ويؤمن « بأن فى

موسكو تتحطم عبودية الشعوب الخاضعة لظلم روسيا ، وعبودية جميع الشعوب السلافية ، وتدفن قيودها في خرائب البورجوازية .. ومن بحر الدماء والنيران سوف ترتفع فوق موسكو راية الثورة عالية في السماء ، لكى تهدى الانسانية المتحررة » .

ولكن باكونين في برلين أخذ يتخلص من هذه النزعة السلافية ، ويتخلص من مسحته الدينية ، وأخذت تهب عليه التيارات التى تمثل صميم أوربا .. فيمتص أفكارها الثورية التى تعتمل في أحشائها .. ببطء .. ولكن بقسوة ..

ويكتب باكونين في جريدة الهيجليين مقالات تحت اسم مستعار « جول ايلزار » وعنوان المقالات « الرجعية في المانيا » وفى هذه المقالات تنفجر احدى عباراته الشهيرة التى تصبح شعارا لحياته « ان عاطفة التخريب والهدم عاطفة خلاقة » وهو في هذه المقالات يحلل التاريخ الالماني — على أساس هيجلى ، ويقول ان الرجعية لا بد منها لكى يكون التحرر .. فهما نقيضان يخرجان الحرية .. وان كان يضع كل اهتمامه على حركة النفى والهدم .

وينطلق باكونين عبر أوربا يبحث عن ثورة يشترك فيها . فينتقل من المانيا الى فرنسا الى بلجيكا ، يخالط الثوريين ويجهر بآرائه الفوضوية .

وتسعفه ثورة ١٨٤٨ في فرنسا ، فيخوض معارك الشوارع ويعتصم بالمتاريس ..

ثم يفر الى بروسيا ثانية ، فيقابل صديقه الموسيقار ريتشارد فاجنر ، ويدعوان معا الى ثورة على غرار ثورة فرنسا .. وتشتعل حوادث دامية في مدينة درسدن ، وتظل المدينة بلا سلطات خمسة أيام . ولكن العصيان يفشل ، فيتمكن فاجنر من الهرب ، ويقبض عليه ويحاكم فتحكم السلطات عليه بالاعدام .

وتسلمه بروسيا الى النمسا ، فتعاد محاكمته ويحكم عليه بالاعدام ثانية ، وتسلمه النمسا بدورها الى روسيا بلاده ، فيحكم عليه القيصر بالسجن المؤبد .. ويظل مسجونا في قلعتى سان بيير وسان بول .. حتى تخفف عقوبته ويرسل الى سيبريا .

وقد قيل أن القيصر نيقولا شطب اسمه عند عرض قوائم الافراج

عن بعض المسجونين السياسيين ، وان خليفته القيصر الكسندر الثانى قال لام باكونين عندما قابلته تسترحمه :

ــ ان ولدك لن يذوق طعم الحرية ما دام حيا .

ولكن باكونين يستطيع الهرب من سيبريا الى اليابان ، ويذهب الى أمريكا ، ثم يعبر المحيط ويعود الى أوربا ثانية. ويقابل مواطنيه المنفيين أيضا الذين قابلهم فى موسكو منذ أكثر من عشرين عاما : مثل هيرزين وأجاريوف .

ويشترك باكونين فى مجلة هيرزين « كولوكول » ، ولكن لهجتها المعتدلة لا تعجبه ! فيهجر الكتابة ويبحث عن ثورة . وتسعفه ثورة بولنده ــ مرة ثانية ــ فيسرع للاشتراك فيها .. ولكن الثورة تفشل .

فيفكر فى العودة الى بلاده : روسيا . أو على الاصح فى غزو بلاده . وينجح فى اقناع بعض الثوار المسلحين ويتفق معهم على الهجوم على روسيا من السويد . ويستأجر لهم سفينة ، ولكن صاحب السفينة يخشى العاقبة ، فيشى بالسر الى السلطات، ويقبض على باكونين من جديد .

ويتمكن باكونين من الهرب الى لندن . وهناك يلتقى بكارل ماركس للمرة الثانية بعد ستة عشر عاما .

وتدور بين الرجلين أكبر معركة بين الفوضوية والاشتراكية . وتتدخل فى المعركة الكراهية الشخصية والتحدى والنزق والاشاعات مما يصور بحق نزاعا عاصفا بين المذهبين .

ويصف باكونين بنفسه هذا النزاع فيقول :

ــ بينما كنت سجينا فى قلاع بروسيا وسجون روسيا وجليد سيبريا كان ماركس وشركاه يصيحون من أعلى أسطح المنازل بأبشع الاشاعات حولى .

قالوا :

ــ اننى لم أسجن ، وان القيصر نيقولا قابلنى بأذرع مفتوحة ، وضمنى الى صدره ، وأمر أن توفر لى وسائل الراحة والمتعة ، وقالوا اننى أمضيت عقوبتى الطويلة بين أحضان النساء الخليعات غريقا فى بحر من الشمبانيا .

وترجع هذه الاتهامات الى أن أحد الكتاب نشر فى جريدة « الراين الجديدة » التى يشرف عليها ماركس أن الكاتبة الفرنسية جورج صاند تملك أوراقا تثبت أن باكونين أسلم روحه الثائرة للقيصر : وانه اعترف له بسخافة دعواه ، واعتذر عنها ، نخفف القيصر عنه العقوبة ونقله الى سيبريا !

وقد ظلت هذه الاشاعة تحوم حول الرجل ، حتى بعد أن بادرت جورج صاند وكذبت هذا النبأ .. وقالت انها لاتعرف شيئا عن علاقة القيصر بباكونين .

ويقول باكونين ان ماركس « أرسل الى ورقة صغيرة يسألنى اذا كنت أستطيع مقابلته . وقد رددت عليه . فجاءنى . وأقسم لى أنه لم يقل أى شىء أو صنع أى شىء ضدى ، وأنه يكن لى احتراما بعيدا . وكنت أعلم انه يكذب . ولكننى لم أكن أحمل له أى حقد . وأثارنى أن العلاقة بينه وبينى قد تجددت .. وانها اخذت تتجه اتجاها جديدا .

.. فلقد علمت أنه قام بدور كبير فى انشاء الدولية الاشتراكية .. وقرأت البيان الذى كتبه بنفسه باسم اللجنة المركزية المؤقتة، ووجدت البيان قويا رصينا .. عميقا كأى شىء يكتبه ماركس ولا يتصل بشخصه . وباختصار ، عاد الينا الصفاء ، وان كنت لم أرد عليه زيارته » .

ويصف ماركس فى خطاب ارسله الى صديقه انجيلز هذا اليوم فيقول :

ــ « لقد سافر باكونين الى ايطاليا اليوم .. ورأيته أمس مساء مرة ثانية لاول مرة بعد ستة عشر عاما ، ويجب أن أقول لك اننى أحببته كثيرا .. أكثر مما مضى .

لقد قال لى انه سيوجه نشاطه ــ بعد فشله فى بولنده ــ الى الحركة الاشتراكية ..

وعموما فاننى أرى فيه شخصية نادرة من الشخصيات التى لم تتأخر منذ ستة عشر عاما ، بل انه تطور وتقدم » .

وأيا كانت هذه الهدنة بين الفوضوى والاشتراكى ، وهذا الحب

المؤقت من على السطح . فقد كان العداء بينهما أصيلا وعميقا ، وكان الصدع بينهما لا ينسجم .

لقد كانا مختلفين اختلاف المذهبين أيضا .

كان باكونين ثائرا منفعلا يعادى كل نظرية فكرية منتظمة ، ويتجنب العلم ، ويتحاشى التنظيم ، ويهزأ بحكم « الاساتذة » كما يقول ، وينادى بالبحث عن ذلك التيار الخفي الذى يسرى فى قلوب الشعب مثل الكهرباء .. ليحيله الى صاعقة تهدم كل شيء .

وهو لهذا يؤمن كل الايمان بقوة الغريزة ، وانطلاقاتها غير المنظمة .. ويرى أن الانسان يمر بثلاث مراحل اذا تطور : من الحيوان الى المفكر ثم يصعد بعد ذلك الى مرحلة الثائر . وهو لذلك يسعى الى اطلاق شرارة العصيان فى كل النفوس ، ويعتمد على « الغوغاء » غير المنظمة ، لتعصى الاوامر وتكسر القيود وتنكر التاريخ وتمحق المدنية ! .

ومن كلماته المعبرة عن هذه الروح هذه العبارة المتوترة :
« على وعلى البورجوازيين يا رب ! » .

أما ماركس فانه يهتم بالنظرية ويدعو الى العلم والفلسفة .. ولا يؤمن بالسياسة التى تضع مصيرها فى يد الانفعالات ويركز همه على الوعى ، ويعطى له الدور القيادى .. قبل كل شيء .

ولقد دار باكونين حول ماركس ، وناقضه ، وعاداه وكان لا يعدم الاعجاب بشخصيته ، حتى انه يقول « لقد كان ماركس تقدميا أكثر مما كنت بكثير ، كما يظل اليوم أكثر علما منى بدرجة لا تدع مجالا للشك وان لم يكن أكثر تقدمية منى الآن . فلم أكن أعرف حينذاك « ١٨٤٣ — ١٨٤٧ » شيئا عن الاقتصاد السياسى ! ولم أكن قد تخلصت من المفاهيم الميتافيزيقية المجردة ، وكانت اشتراكيتى غريزية فقط » .

وكان باكونين يتراوح بين الاعجاب بماركس والعجز دونه والحنق عليه .. وكانت عداوتهما مستمرة — على الرغم من أنهما لم يلتقيا الا قليلا .. وعلى الرغم من أن ماركس كان غالبا فى مكان .. وباكونين فى مكان آخر .

ولعل هذا العداء جعل باكونين يرقب ماركس ، وكأنه يثقب عقله ويعرف مافيه ، ولباكونين كلمـــات قليلة تلخص الخــــلاف بين الرجلين . يقول :

« ان ماركس شيوعى يؤمن بالسلطة المركزية . انه يريد ماتريده: انتصار المساواة الاقتصادية والاجتماعية .

ولكنه يريدها فى الدولة .. ومن خلال سلطة الدولة : أى من خلال ديكتاتورية حكومة مؤقتة ، يمكن أن تتصف بالاستبداد وبمعنى آخر بالغاء الحرية :

ان مثله الاعلى الاقتصـــادى هو الدولة كالمالكة الوحيدة للارض وكل أنواع رأس المال .. فهى التى تزرع الارض بواسطة جمعيات زراعية يشرف عليها مهندسون من الدولة ، وهى التى تشرف على الجماعات الصناعية والتجارية برأسمال الدولة ..

ونحن نريد أيضا المساواة الاقتصادية والاجتماعية .

ولكننا نريدها من خلال الغاء الدولة . والغـــاء كل مايسمى بالقانون ـ الذى اعتقد أنه نفى للحقوق الانسانية .

ونحن نريد اعادة بناء المجتمع وتوحيــد الانسانية ليس من فوق الى تحت . بل بالاتفاق الحر لكل جماعات العمال المتحررة من استعباد الدولة » .

اذن لقد وصلت الفوضوية عند باكونين الى مرحلة حرجة وخطيرة .. انها اكتشفت شيئا جديدا يتكون فى احشـــاء المجتمع الاوربى اسمه : العمال .

وهذا هو السر الحقيقى لتلك المرارة وذلك الحقد والنفور الذى دمغ العلاقة بين ماركس كاشتراكى وباكونين كفوضوى .

وقد دارت المعركة رهيبة بين الرجلين عندما تأسست الدولية الاولى التى تجمع الحركات الاشتراكية فى أوربا .

وكان السباق مجنونا بين القطبين . واحتنق ماركس لان باكونين بدأ ينشط فى ايطاليا ، وأسس فى عام ١٨٦٤ جماعة الاخوة العالمية ، أو « حلف الثوريين الاشتراكيين » .

وقد انشغل الحلف وقتـــا بمحاربة قومية ماتزينى .. ثم رحل باكونين بعد ذلك الى سويسرة حيث ســـاهم فى تأسيس « الحلف

العالمى للديمقراطية الاشتراكية » ، ووضع باكونين برنامج الحلف الذى تتلخص مبادئه :

« يعلن الحلف أنه ملحد . ويهـدف الى الغاء الطبقات والمساواة السياسية ، والتسوية الاجتماعية بين الرجال والنساء ، ويرغب فى أن تكون الارض ووسـائل العمـل وانواع رأس المال الاخرى ماكا مشتركا للمجتمع كوحدة . ولا يستخدم الا بواسطة العمـال ، أى بواسطة الاتحادات الزراعية والصناعية .. »

وقد حاول باكونين أن ينضم بالحلف الى الدوليـة الاولى التى أسسها ماركس ، وكان يرمى الى الاندسـاس اليهـا ثم التهامها واقصاء ماركس عنها .

ولكن ماركس عرقل له هذا المسعى تارة باعتراضات شكلية .. وتارة بالاشاعات حول جاسوسية باكونين ..

وفى المؤتمر الرابع الذى عقدته الدولية تمكن باكونين من الدخول بأحد أفرع حلفه .

وثارت فى المؤتمر عاصفة بين أنصار باكونين وأنصار ماركس .

والغريب ان المندوبين الالمان والانجليز وافقوا ماركس على ايمانه بالدولة بالشكل الذى تتخذه بعد الغاء الملكية الخاصة ، وعلى رأيه فى وجوب تأسيس أحزاب عمالية فى الدول المختلفة ، وفى استخدام الوسائل الديمقراطية لانتخاب مندوبين للعمال فى البرلمانات ..

بينما يتبع اللاتينيون رأى باكونين ، فى معارضته للدولة وعدم ايمانه بالوسائل الديمقراطية .

وأثير من جديد اتهام باكونين بالجاسوسية والتعامل معالقيصر !

ولم يقض على باكونين الا فى المؤتمر الدولى العـام الذى انعقد فى لاهاى ١٨٧٢ ، اذ طرد باكونين غيابيا واتهم بالسرقة بالاكراه !

وبهذا شقت الاشـتراكية طريقها الخـاص ، بعد أن تخلصت فى معركتها الكبرى من باكونين وآرائه .. وان كان ماركس قد دخل فى معارك أخرى مع غيره من الفوضويين .

وعندما ألف الفوضوى الفرنسى برودون كتاب « فلسفة البؤس » رد عليه ماركس بكتاب سماه « بؤس الفلسفة » .

والخلاف بين برودون وماركس يتلخص فى أن برودون يعارض الملكية أيا كان نوعها ، سواء أكانت الملكية خاصة أم جماعية . فهو يرى أن « في ظل الحكم الفردى (الليبرالى) يستعبد الاقوياء .. الضعفاء ، وفى ظل الحكم الجماعى يستعبد الضعفاء الاقوياء » .

ومن أشهر عبارات برودون : الملكية هى السرقة .

وهو يعارض الملكية ، ولا يعارض حق التمتع .

«فالتمتع يلهب نشاط الانسان ، ويذكى قواه ويدفعه الى العمل . واذا زالت هذه الرغبة فمصير العمل الى الموت والجمود » .

وبرودون يعارض السلطة أيا كان نوعها ، واصحابها لايختلفون فى رأيه سواء أكانوا رجعيين أم تقدميين لان « حكم الانسان للانسان عبودية » .

وقد خاض ماركس أيضا معركة ثالثة مع الفوضوى الالمانى ماكس شترنر .

وقد كان فردريك انجيلز يتقابل مع ماكس شترنر فى نادى الاحرار ببرلين .. والنادى يجمع اليساريين اتباع هيجل ومنهم : الاخوة بوير وكوبن مؤلف كتاب « فردريك الثانى وخصومه » وكارل ماركس . .

ولانجيلز أبيات طريفة يصف فيها شترنر الذى كان يجلس هادئا يدخن بيبته ، ولا يتدخل فى المناقشات الصاخبة الا قليلا ..

« انظر اليه ... انه على وداعته عدو المظالم

انه يعب البيرة ، وبعد قليل سوف يعب الدماء كما لو كانت ماء قراحا ..

ولا يكاد الناس يصرخون : يسقط الملوك .. حتى يقف شترنر ويقول فى هدوء .. « يسقط الملوك والقوانين كذلك ! »

وشترنر هذا اسم أطلقته عليه جماعة من أصدقائه .. لان اسمه الحقيقى هو جوهان شميدت .. ولكن زملاءه أطلقوا عليه هذا الاسم لان جبهته كانت عالية .. وشترن بالالمانية معناها الجبهة ، وشترنر هو « أبو قورة » . .

وقد ولد ماكس شترنر فى مدينة بيرت بباڤاريا .. وأبوه صانع

آلات موسيقيه . ولكنه مات وماكس في سن الطفولة . فزوجت أمه رجلا آخر . .

ودرس شترنر في برلين ، وتتلمذ على هيجل ، ولكنه لم يحصل على شهادة تؤهله للتدريس في الجامعة . . فاشتغل بعد تخرجه مدرسا في مدرسة بنات أهلية . .

وشترنر ـ الذي يعتبر من أعصى الفوضويين وأقواهم حجة وتسبعا وفهما لفلسفة هيجل ـ عاش حياة هادئة دينية . .

كان يذهب في الصباح الى المدرسة يعلم البنات ، وفي المساء الى النادي . .

وقد تزوج شترنر من فتاة متحررة كانت تقلد جورج صاند ، ولم يحتفل بزواجه في الكنيسة . .

وفي نهاية عام ١٨٤٤ ، أصدر شترنر كتابه المشهور : « المفرد وماكيته » ؛ فأثار ضجة كبيرة في ألمانيا . .

واستقال شترنر من المدرسة . واتجه الى صناعة وتجارة الجبن ، ولكنه كان يقول : « اذا كانت صناعة الجبن هينة ، فان بيعه ليس سهلا . . »

وأفلس شترنر سريعا ، فقبض عليه لانه لم يدفع ديونه وحكم عليه بالسجن . .

وشترنر من أصفى الفوضويين تفكيرا وأعمقهم تحليلا ، ولكنه جنح بالفلسفة الهيجيلية وجمح بها حتى أطلق عليه الفوضوي الهادىء المتعطش للنار والدماء . .

يقول شترنر ليس في الوجود موجود غير الفرد . وهو يطالب لهذا الفرد بحق التفرد ؛ ويستغني عن حق الحرية المطلقة . . أن يكون هو كما يريد هو لا كما يريد القانون أو المجتمع أو التاريخ . .

وهو يطالب باخضاع الدولة « لقدرتي أنا » ، وصراع المجتمع « لحاجاتي أنا » ، والنزعة الانسانية كلها « لمتعتي أنا »

وهو يرى أن في الدولة تحديدا «للانا المفردة» ، ويقول : «انني لا أطالب بأي حق ، ولكنني أريد ألا أكون مطالبا بالإعتراف بأي حق . . فما أستطيعه أستطيعه ، وما يخرج عن قدرتي أتركه ! »

وليس من حق المجتمع أن يفرض علينا واجبات اجتماعية . بل من حقنا نحن أن نتطلب من المجتمع ارضاء حاجاتنا . .

ولكن ماذا نصنع بالمجتمع ؟ لتلغ الدولة وليتحول المجتمع الى تشارك . .

ولم تصل الفردية عند مفكر فى التاريخ مثلما وصلت عند شترنر الذي يدافع عن « الانا وملكيتها » دفاعا حارا . ويمكن ان يقال انه أول من أدخل « عبادة الفرد » أو على الاصح عبادة الذات كفلسفة

وقد مات هذا الفيلسوف ميتة غريبة ، اذ لدغته ذبابة فى قفاه . . ومات متأثرا بجراحه !

وشترنر من أعدى أعداء الفكرةالجماعية . وهو يطالب بأن تخضع الحكومات والسلطة والملكية وكل شيء فى المجتمع للانسانالمطلق الفرد . . « الذى هو أنا » .

ولهذا كان ماكس شترنر يسخر من ماركس ويصفه بسانت ماركس . . أى القديس ماركس ، وكان ماركس يرد عليه التهمة فيسميه فى كتاباته سانت ماكس ! .

ولكن شترنر كان يعيش منزويا منفردا ، يقيم مملكة في قوقعة . . ولهذا لم تكن المعركة بين الرجلين صاخبة كما كانت بين ماركس وباكونين ، أو بين ماركس وبرودون ! .

وعلى الرغم من ان نشاط ماركس ضيق الخناق على الفوضوية ، فلم تستطع الاستيلاء على الحركة العمالية فى أوربا . الا أن الفوضوية ظلت تلوح بالمجتمع السعيد الحر المطلق من كل شيء .

وساعد على ذلك أن بعض الفوضويين بدأوا يتخصصون فى دراسة الاقتصاد ، ويرسمون صورة للمجتمع القادم . ويضعون النقط فوق الحروف . .

وتحولت الفوضـــــــوية من هذه النزعة الغاضبة من اى شيء المعارضة لكل شيء ، وبدأت تبحث عن الدفاع المعقول عن حقوق الافراد ضد سلطان الدولة .

وفى قضية « دريفوس » الشهيرة : . قام الفوضويون بدور كبير . . فى تبرئة هذا الضابط المتهم ظلما . .

ويرجع عيد أول مايو الذى يحتفل به العمال حتى الآن الى

مظاهرة قام بها العمـــال ، من بينهم بعض الفوضـــويين - فى مدينة شيكاغو . وأعلن اتحاد النقـابات الاضراب فى مايو ١٨٨٦ ، ولكن البوليس تصدى للعمال ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وكانت مذبحة .

وفى الغداة انعقد اجتماع للاحتجاج ، وألقيت قنبلة على البوليس

فحكم على ثمانية فوضويين بالموت : دون دليل على قيامهم بدور محدد فى الاضطرابات : وبقى ثلاثة فى السجن .

ولكن تلك الكارثة كانت نهـاية المطاف ، وآخر الرحلة .. لان الفوضـــوية لم يبق امامها غير باب ضيق : دخلت فيه فى القرن العشرين . .

ودخلت القــرن العشرين وما زالت على عصيانهـا وكبريائها القديمة .. فاشتبكت فى روســيا بالثورة الاشتراكية فى صراع مسلح . وقد وجدت هذه الثورة خصما عنيدا فى شخصية اسمها نيسور ماكنو الذى كون فيلقا من الفوضويين : وظل يحارب حربا هوجاء ضد قوات القيصر وفى نفس الوقت ضـــد قوات الثورة الاشتراكية .

وبعد حرب دامية ، فشلت محاولة ماكنو ، وهاجر الى فرنسا . ومات وحيدا فى بلاد لايعرف لغتها وهو لايزال يشرع فى كتابة قصة كفاحه ضد الثورة والقيصرية معا .

وبهزيمة الفوضوية فى روسيا تحطمت احلامها على صخرة الواقع . فتحولت الى اتجاه سلبى عصيانى ، وان لم يخل فى آخر حياتها من أن تتخذ شكلا نبيلا حين أعلنت الحرب العالمية الاولى ..

وسرت بين الفوضـــويين دعوة جادة لعدم الاشـــتراك فى الحرب ويصف واحد من هؤلاء الفوضويين حياته فيقول :

« ـ ربع قرن وأنا أكافح .. أترك وآخذ ، وأؤمن وأكفر ، وأنــكر واثبت .. أمضيت وقتا قصــيرا فى المدرســة ، وخبرت كثيرا من التجربة . وأصبحت فيلسوفا من أبناء السبيل : أحرق عالما واخلق عالما جديدا أفضل ..

ومن المحال أن تتلوث يدى بأدوات الموت »

وقد سيق هذا الفوضوى للمحاكمة لعصيانه الاوامر الحربية .

وأصدر بعض الفوضويين بيانا يتهمون فيه الدولة بأنها سبب

الحرب .. الدولة على اختلاف أنواعها : الديمقراطية فى انجلترا والعسكرية فى ألمانيا والاوتوقراطية فى روسيا القيصرية .

وهدأت نار الفوضوية .. فى أوربا .. حتى ظهرت من جديد فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية . وكانت الفوضوية منذ سنين طويلة قد اتجهت الى ايطاليا واسبانيا .. منذ ايام باكونين الذى كان يفضل اللاتين على الجرمان .

ولكن الامل كان ضعيفا فى فوز الفوضوية فى اسانيا ، حتى ان الكاتب لاندبرج كتب أثناء المعركة يقول :

« لن تستطيع الفوضوية ان تنجح فى العالم القديم . انها تذكرنا بالنبل ــ نبل دون كيشوت الذى انتصرت عليه طواحين الهواء .

الفوضوية ستهزم فى أسبانيا : أما على يدى الفاشية أو من الماركسيين الذين تقتصر مطالبهم الآن على تكوين جمهورية ديمقرطية واصلاح اجتماعى عميق .

ان واقع الحرب الحديثة الميكانيكية يحطم الحزب الفوضوى تماما .. لانها اقوى من قدرته ..

وبهزيمة الفوضوية وتحطيمها ، عادت مرة ثانية الى الاحلام الادبية والاعمال الفنية .

واختلطت بالحركة الرمزية فى الادب ..

وظهر شعراء وأدباء منهم ستيوارت ميدل ، وهو شاعر امريكى يقول : ان المجتمع الحديث يشبه قصيدة رديئة النظم ، ولذلك يجب انقاذ الشعر بالمذهب الرمزى وانقاذ المجتمع بالفوضوية ..

ويضع كثير من نقاد الادب الروائى العظيم تولستوى فى عداد الفوضويين « الفكريين » .

ويستعيد مكسيم جوركى ذكرياته عن تولستوى فيقول :

كانت الفكرة التى تعكر سلام نفسه ، أكثر من اى فكرة اخرى : هى فكرة الله ..

كان لا يتكلم كثيرا عنها بقدر مايحب أن يتكلم ، ولكنه كان يفكر فيها دائما ..

ولست أعتقد أن هذه الفكرة ترجع الى أنه تقدم فى السن ، أو

لانه يحس بنهـــايته تدنو ، ولكن لانه يحسر بفـــكرة الله متصلة بكرامة الانسان ..

كانت يداه رائعتـين ، قبيحتين ، تعكر نعومنهمـا عروق منتفضة .. ولكنهما معبرتان تعبيرا قويا .. ولعل يدى ليونارد دافنشى كانتا تشبهان يديه ..

كان حين يتكلم أحيـانا ، يلوى اصابعه الى الامام والى الخلف ، بينما ينطق بكلمات رائعة ..

كان يشبه الها . ليس من آلهة الاوليمب .. ولكن الها روسيا « يجلس على عرش من الخشب ، تحت شجرة ذهبية من اشجار الليمون » ، ولعله كان بين كل الالهة أشدهم جميعا دهاء .

ويستـــأنف جوركى ملاحظاته فيقول : « ان واحدا من الادباء المقربين الى تولســـتوى أحضر له كتيبا كتبه البرنس كروبتكين الفوضوى ، وكان الاديب متحمسا لافكار هذا الكتاب ..

ولكن تولستوى قال له :

ـ توقف .. ! لقد تعبت .. انك كببغاء ..

لاتنطق غير كلمـــة واحـدة : الحرية . الحرية . فمـاذا تعنى بها بالضبط ؟ .

لنفرض انك حصلت على الحرية التى تعنيها .. فمـاذا تكون النتيجة ؟ .

انها ، فلسفيا ، فراغ لاقاع له ، انك تصبح فى الحياة ، فى الواقع ، شحاتا كسولا . .

اذا كنت حقاحرا كما تتصور ، فماذا يربطك بالحياة ، وبالكائنات .. ؟ انظر .. الطيور حرة ، ولكنها تبنى عشا ..

ولكنـك لن تذهب لتبنى عشا ، ستذهب لترضى غرائزك أينما عن لك . .

فكر جيـدا لحظة ، وسترى ، وستحس أن المعنى النهـــائى لكلمة الحرية انها فارغة ، انها فراغ .. انها حيز لاحدود له ..

.. ان الحرية معنـــاها أن كل شيء وكل شـــخص يتفق معى .

ولكن ذلك معناه اننى توقفت عن الوجود ، ذلك لاننا لانعى بأنفسنا الا لاننا فى صراع ونزاع » ..

أليس غريبا أن يثور تولستوى على « التشدق » بكلمة الحرية التى طالما تحدث عنها الفوضويون .. وفى نفس الوقت يعتبر فوضويا ..

ان الفوضوية عند تولستوى قمة أخرى غير قمتها عند باكونين وتلميذه كروبتكين ..

فتولستوى على نقيض باكونين وكروبتكين ، لان تولستوى لايؤمن بالعنف ، والآخرين يؤمنان به .

وتولستوى وجد الحل فى الدين ..

انه كغيره من المفكرين الذين تعمقوا فى الدين ، واحتاروا معه ، ثم وصلوا الى اكتشاف الدين بدون رهبنة ودون طقوس ودون مسوح .. أو نذور وأيقونات : فى العلاقة المباشرة الخالصة النظيفة بين الله والانسان ..

انه مثل المفكرين الذين حاولوا العودة الى النبع الاصيل الاول للدين ، مثل من عادوا الى الثلاثين عاما الاولى من الاسلام قبل أن تظهر الفتنة وتتكون الدولة وتتجمد .. والى المسيحية قبل أن تصبح امبراطورية ..

وقد وجد تولستوى الدين فى اللحظات التى ينبلج فيها أول خيط من ضيائه لاول مرة على الارض : نظيفا صافيا ..

وهذا الضوء قاده الى الحب .. الحب الذى تخلص من كل انانية .. « لاتقاوم الشرير » يعنى : لاترتكب مايتعارض مع الحب » ..

ولهذا رأى تولستوى أن الحب المسيحى لا يتلاءم مع ماترتكبه الدولة من اثم . « فالدولة تنوم المواطنين باسم الوطن ، وتفسدهم لانها تفرض فى نفسها القداسة والسلطة ، وتضطهدهم لانها ترسلهم الى .. الحرب . »

وقد أمكن لتولستوى أن يمارس هذا الحب الذى يصعد .. فى حياته الخاصة ، الحب الممزوج بالتواضع والعفو ، والذى بدونهما يصبح شيئا آخر .

فقد تنازل عن لقبه ، وتنازل عن ضيعته الواسعة ، ولم تخدش الشهرة الواسعة تواضعه ، مع أنه كان أشهر كاتب في روسيا اذ كتب « أنا كارنينا » و « الحرب والسلام » ..

ولم تفسد الثروة روحه ، فأخذ يأكل كالفلاحين ويلبس لبسهم، ويصنع حذاءه بنفسه .. ومع ذلك لم يكن هذا الفوضوى الصوفى راضيا لا بعائلته التي أنجب منها ثلاثة عشر ولدا ، ولا بشهرته التى طبقت الآفاق ، ولا بضيعته الواسعة .

وفى رحلة جامحة قام بها تولستوى تحت سياط القلق مات الكونت على سرير حديدى نحيل فى محطة سكة حديد . .



يبدو أن الفوضوية عادت الى عالم الاحلام المستحيلة كما بدأت .. والغريب انها فى أوروبا بدأت عند جودوين الانجليزى فى أواسط القرن التاسع عشر ، وعادت بعد قرن كامل الى عالم الاحلام أيضا عند هربرت ريد .. الانجليزى أيضا .

وقد أوصدت ابواب التاريخ كلها أمام الفوضوية الآن .

وقد انهزمت فى التطبيق كما رأينا على يد الاشتراكية التى استولت على عقول العمال فى أوربا ، ولم يعد للفوضويين مكان بينهم

وظهر فساد نظرتها فى الدولة التى كان الفوضويون يعتبرونها أداة دائمة للظلم ، لان التجارب الحديثة أثبتت أن الدولة يمكن أن تقوم بدفع عجلة التطور ، وخاصة اذا كانت تمثل الاغلبية ... ومصالحها . .

كما أن الدولة أثبتت انها يمكن ان تقوم بأعمال جليلة كالتأميم والخدمات الاجتماعية .

وكل ذلك كان الفوضويون ينكرونه ، ولا يتصورون امكان حدوثه ، اذ كانوا يتصورون ان الشر طبيعة فى الدولة دائما ، وهكذا اسسوا نظرياتهم كلها على هذا الاساس الذى اثبتت التجربة أنه يتغير بتغير الظروف والازمان .

فهل بقى من الفوضوية شيء آخر الآن ؟ .

ذات يوم كنت أمر فى طريقى المعتاد بأحد شوارع باريس ، فاسترعى بصرى جريدة ملصقة على الحائط ، والفرنسيون اعتادوا أن يلصقوا جرائدهم على الحيطان ..

ولكن الذى جذبنى أن هذه الجريدة مطبوعة على الطريقة القديمة التى تختلف عن بقية الجرائد .

وعندما اقتربت من الجريدة وجدتها احدى الجرائد الفوضوية. وهى جريدة كانت تصدر منذ ستين عاما .
وحاولت أن أقرأ ، فوجدت اشعارا وآراء فنية .

وتساءلت :

ألا يزال للفوضويين اتباع حتى الآن ؟ .

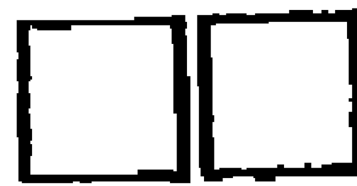
وعدت الى الجريدة ؛ اقرأها فلم أجد فيها شيئا يتصل بالحياة الجارية . .

ولكنى عجبت من بقاء الاخلاص لهذا المبدأ حتى الآن . .

وعندما قاربت من الانتهاء من قراءة الجريدة ؛ لاحظت أن الذى الصقها تخير لها مكانا خاصا على الحائط . . لأنه ألصقها تحت كتابة كتبتها البلدية بالخط الكبير : ممنوع لصق الاعلانات طبقا للقانون . .

ووقفت قليلا ، وأنا أنظر الى الجريدة الملصقة والتنبيه المكتوب . . وابتعدت الى طريقى . .

ـ لعل هذا هو التحدى الوحيد الذى بقى للفوضويين .



بعض الكتب يبقى بعــــدما
تحول الدول ، وتزول العهود ،
ويختفى الحكام ..



حكاية الفاشوش

اذا كان العرب قد اشتهروا بتصوير الشخصيات الفكهة ، التى أصبحت عندهم مضرب الامثال ، وأصبحت من بعدهم نماذج انسانية شهيرة ، مثل أشعب الطفيلى ، وبنان الموسوس ،وأبى العبر المتحذلق ، وباقل العيى ، وهنبقة الاحمق « ولعله أصل كلمة هنبكة فى العامية المصرية » ، وغيرهم من النماذج كثير ، فلاشك ان صورة قراقوش أصبحت أشهر هذه الصور ، حتى يقال انها هى التى أوحت للاتراك أن يطلقوا اسم القره قوز على فنهم المعروف ، استلهاما من اسم قراقوش الذى أصبح يضحك الجميع ، وعلامة مسجلة على الضحك القلق والسخرية الجارحة .

وقد كتب شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد بن مماتى مؤلف « الفاشوش فى حكم قراقوش » يصف فى سطور قليلة هذه الشخصية الواقعية فى عصره ، لانه كان أحد قادة صلاح الدين الايوبى ، وأقرب المقربين اليه ، فقال :

« اننى لما رأيت عقل قراقوش محرفة فاشوش ، قد أتلف الامة والله يكشف عنهم كل غمة ، لايقتدى بعالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد — من عظم منزلته — أن يرد على كلمته . ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما انزل الله به من سلطان . صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » !

فليس أبدع واروع من هذا الوصف الجارح لحاكم مستبد ، غبى متعاظم ، حين يقال عنه انه لا يهتدى لمن صدق ، ولا يستطيع أحد أن يرد على حكمه ، وانه يشتط اشتطاط الشيطان ، وان الذى يتسابق اليه ، فيسبق غيره هو الذى يكسب الحق ، ولو لم يكن حقه . .

ويروى ابن مماتى فى كتابه الفاشوش بعض النوادر التى أصبحت عنوانا للحماقة وقلة الثقافة والاستهانة بالبشر فيقول :

جاءت الشرطة لقراقوش بأحد غلمانه الذين قتلوا نفسا بغير حق

فقال قراقوش :

— أشنقوه

فقالوا له :

ـ انه حدادك الذى ينعل لك الفرس فان شنقته ، انقطعت منه، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك

فنظر أمام بابه ، فرأى رجلا قفاصا

فقال قراقوش :

ـ اشنقوا القفاص ، وسيبوا الحداد

وهكذا خيل لقراقوش أنه يستطيع أن يشنق أى برىء مكان المذنب . فالقصاص ليس للمجرم ، ولكنه أى قصاص يقع على أى انسان ، ولو كان عابر سبيل

وقيل ايضا ان جنديا نزل فى مركب وكان به فلاح وزوجته ، وهى حامل فى سبعة أشهر ، فصدمها الجندى ، وأسقط حملها ، فأخذ زوجها بتلابيبه ، وقاده الى قراقوش ، فقضى على الجندى أن يأخذ الزوجة ، ويطعمها ، ويكسوها ، ولا يعيدها الى زوجها الا وهى حامل فى سبعة أشهر ، كما كانت !

وقيل ان قراقوش طار منه طائر « بازى » ، فقال :

ـ اقفلوا باب النصر ، وباب زويلة حتى لا يجد البازى موضعا يطير منه ..

ويحكى ابن مماتى رواية أخرى عن غبائه وكبريائه ، فيقول انه رأى الجمال تسير عشرين عشرين ، ورأى أن النيل ـ فى ذلك الوقت ـ كان هابطا فقال لغلمانه :

ـ نادوا فى المدينة لقد أمر قراقوش الا يملى أحد من البحر الا جملا واحدا ..

فلما فعلوا ذلك ، أوفى النيل ، أى فاض وزاد

فقال قراقوش :

ـ ألم أقل لكم ؟ ان رأيى مبارك عليكم !

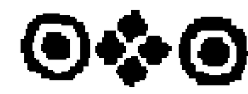


واحتكم شيخ وصبى الى قراقوش فى ملكية دار . وتراءى لقراقوش ان الدار لا تكون الا للشيخ ، ولا تكون للصبى .

فقال للصبى :

ـ يا صبى .. ادفع له داره . فاذا صرت فى عمر ذلك الشيخ دفع لك الدار ..

وشكا اليه مدين انه بجمع دينه ، ويذهب به الى صاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتى هذا فيطالبه ، ويلح عليه ، وهو خالى الوفاض، لا يملك السداد ، فأمر قراقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه ، متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل ..



والقصص التى يحكيها ابن مماتى عن قراقوش لاتكتفى بتشويه سمعته ، وعقله ، بل تصوره أحيانا غبيا أحمق ، يبسط كل شيء معقدا ، ويعقد كل شيء بسيطا ، وهو الى ذلك شديد البأس عنيد الرأى على هوان هذا الرأى وسخافته ..

بل ويصمم ابن مماتى على ان يصوره جلفا له سلطان وحول وقوة . فيحكى أن شاعرا ذهب اليه يمدحه بقصيدة ، فلما تلاها عليه ، قال له :

ـ يا مقرىء ، قرأت قراءة طيبة

وكأنه ظن ان الذى يتلى عليه ليس شعرا ، وانما هو من القرآن وهذه آية فى ضحالة الثقافة ، بل وفى انعدامها تماما ..

ولو كانت سخرية ابن‌مماتى من الحماقة فى حـــد ذاتها ، أو الشطط والنزق فى حد ذاته ، أو الظلم فى حد ذاته ـ بما فى كل ذلك من مفارقة بين المعقول واللامعقول ـ لاثارت هذه السخرية الضحك دون شك . ولكن الذى «يغذى» هذه السخرية ، ويجعلها لاسعة لاذعة ، ان الحماقة ليست حماقة رجل عادى ، وان الشطط ليس من فتى أهوج ، أو صبى أحمق ، ولكن لان الظلم يأتى من انسان يستطيع أن يظلم ، فيصبح ظلمه قانونا وحكما نافذا على رقاب العباد ..

وقد كان تصـــوير ابن مماتى لشخصية قراقوش من التجهم والوحشية ، حتى حرض الناس على قراقوش ، وعلى كل قراقوش من بعده ، بل وحرض الناس على ان يتتبعوا كل القراقوشيين على امتداد العصور ، فلاذا بكتابه يصبح ملكية عامة ، يضيف اليــــه العامة والخاصة والنابهون فى التاليف أو التلفيق رواسات وروايات ولو لم يكن المؤلف نفسه يحتل منصبا اداريا كبيرا لما استطاع ان

بحـــور بلاهات القصور وشطط الحكام على هـــذه الصورة .
وكان ابن مماتى نفسه من كبار الموظفين فى الدولة الايوبية ، فقــد كان يحتل ما يشبه وزارة المالية أو الخزانة ، ولعل ذلك ما أوحى له أن يضع هذا العنوان « الفاشوش » ، وهو الصفر علامة الافلاس والخسارة ، قبل اسم غريمه قراقوش ويقول كازانوفا المستشرق الفرنسى ، الذى اهتم — فى عصره — باماطة اللثام عن هذا المخطط القيم ، أن ابن مماتى ، كان يسعى الى هز الثقة بقراقوش ، وهو قائد من قادة صلاح الدين الايوبى ، ومن أقرب المقربين اليه ، لانه كان يعهد اليه بامانة الاشراف على مصر ، نيــــابة عنه ، حين كان يضطر الى السفر الى سوريا للقاء الصليبيين .

ويذهب كازانوفا الى أن ابن مماتى اراد فى الحقيقة أن يسخط الشعب على الدولة الايوبية الجديدة ، التى ورثت الحكم الفاطمى، وخاصة ان الايوبيين كانوا من السنة ، والفاطميين من الشيعة ، ولذلك يمكن الظن بأن كتاب الفاشوش هو ضرب من كتب الدعاية السياسية وحرب الدعاية بين المذاهب ، مثلما نشهد فى ايامنا هذه

والاكيـــد المحقق الان أن ابن مماتى مؤلف الفاشوش ، والذى أضحك أجيالا بعد أجيال ، كان مؤلفا جادا ، كتب كتابا ثانيا غير الفاشوش هو كتاب قوانين الدواوين ، وأحصى فيــــه بلاد القطر المصرى ، حين قام صلاح الدين الايوبى بمسح الارض الزراعية ، وكانت هذه هى المرة الخامسة التى تمسح فيها الارض .

ويقول الدكتور عزيز سوريال عطية ، الذى عنى بنشر هـــذا الكتاب المالى ، وعلق عليه ان ابن مماتى أعتذر عن ذكر بعض الارقام والمعلومات الهامة ، لانه كان يعتبر هـــذه المعلومات من « أسرار الدولة التى لايجوز اذاعتها » .

فكيف يمكن ان نوفق بين صورة هذا المؤلف الذى يخوض فى كتاب فى الفكاهة ، ويكتب فيها بالعامية ، ثم يكتب فى كتاب آخـــر بالفصحى عن الارض ومساحة المدن ويعزف عن اباحة اسرار الدولة، فيرتفع احساسه بالمسئولية الى هذا الحد المتعقل .

ان الصــــورتين تتكاملان ، لو علمنـــا أن ابن مماتى كان غاضبا حانقا بلا شك على القائد قراقوش الذى يقربه اليه صلاح الدين . .

وهو حانق من وجهة نظر مذهبية ، كما يذهب كازانوفا .

وهو حانق كذلك ، لان أمور مصر ساءت على الرغم من الانجازات التى حققها صلاح الدين فى الخارج ، من صفحات وضاءة فى الفتوحات وضد الصليبيين ، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادى فى الداخل ، واطلاق الشهوة القراقوشية .. ولعل هذا الوضع ، قد يبرر من زاوية الحكام باسم المصلحة العامة ، باستخدام اسلوب العصر — ولكنه لا يبرر من زاوية المحكومين دائما .

كما اننا نتصور ان حنق هذا الاقتصادى أو هذا المالى ابن مماتى على قراقوش ، هو حنق له ما يبرره ، لان الاقتصادى ينظر للامور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكرى ، مما يثير الفرقة فى النظر دون شك ..

وقد كان عصر صلاح الدين الايوبى ، هذا الرجل الفاتح والبطل الفارس ، عصرا انتقاليا ، لقى من متاعب المقاومة الداخلية والمقاومة الخارجية ، ما يجعله عصرا فريدا حقا .. فمصر تنتقل فيه من مذهب الفاطميين الى مذهب السنيين ، والحكم الايوبى يلقى كثيرا من المعارضة فى سوريا وفى مصر ، ويسجل تاريخ مصر ثلاث فتن داخلية ، لم تخل من خطر أكيد ، حين استنجد عمارة اليمنى بملك صقلية الاجنبى ليهاجم الشواطىء المصرية فاذا به فى يوليو ١١٧٤م ، يحاصر مدينة الاسكندرية بأسطول عظيم ، ولكن ملك صقلية يفشل ، وتتراجع أطماع ملك بيت المقدس الذى كان أيضا يطمع فى شن حملة مماثلة لحملة ملك صقلية تطيح بصلاح الدين ..

وقد لقيت الفكرة الايوبية كذلك مقاومة من اخلاف الفاطميين ، الذين استطاعوا — بعد شهرين من هذا الهجوم الخارجى — أن يثيروا فتنة فى الصعيد مابين أسوان وقوص ، انضم اليها جموع من السودانيين الذين كانوا قد استفادوا من الحكم الفاطمى ، ولا يرضون عن هذا الحاكم الجديد !

وخلاصة ذلك كله ان عصر صلاح الدين كان عصرا انتقاليا ، بكل ماتعنيه هذه الكلمة من اضطراب ومنازعات ، فى الخارج من اليمن الى سوريا الى شواطىء مصر ، وفى الداخل فى الصعيد وبين فلول الفاطميين ، بل وبعض كبار رجال الدولة كقاضى القضاة ، وناظر الديوان وداعى الدعاة وغيرهم ..

ولعل كل ذلك فى أغلب الظن ـ هو الذى جعل صلاح الدين يفوض وزيره قراقوش بأوسع السلطات ، وأعظمها ؛ مما جعل قراقوش نموذجا لهذا المستبد الذى يتعس الناس باستبداده ، فينتقمون منه بالضحك عليه والسخرية منه ، وتمزيق سمعته ؛ والتجريس عليه كما كان يقال فى ذلك العصر . .

وحتى لو قيل أن ابن مماتى كان يحنق على قراقوش ، لانه مقرب الى صلاح الدين ، وهو دون ذلك ، وان الاسعد بن مماتى ، قد الف كتابا فى المال ومسح المدن ، وهذا يعنى أنه لم يكن من عامة الشعب ، فان الاكيد أن هذا الكتاب قد كتب الى صلاح الدين ، كما يقول المؤلف نفسه ، « لقد صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . .

ولكن ابن مماتى مادام هو بالاديب الراجح العقل ، الذى يكتب فى علوم المالية ومسح الاراضى واحصاء المدن باللغة العربية الفصحى ، فلماذا كتب هذا الكتاب باللغة العامية ممزوجة بالعربية الفصحى ؟!

ان التجاء ابن مماتى الى العامية يرجع الى انه كان يرغب أشد الرغبة فى اذاعة هذه الحكايات والنوادر بين الشعب ، حتى يؤلب عليه الرأى العام ، وحتى يدمغ عدوه بما كان يحدث فعلا منه أو بما شاء له الخيال الحاقد ، أو الناقد ، ان يضيفه اليه من مفارقات لو تحققت بالفعل ، لكانت أعجب العجب حقا . .

ولو كان ابن مماتى اراد أن يشكو الوزير قراقوش ، لاستطاع أن يلجأ الى صلاح الدين ، دون ان يلجأ الى تأليف الكتاب وتأليب الرأى العام .

وهذا ما يرجح أن ابن مماتى ، قد ألف الكتاب بالعامية قصدا ، ولم يلجأ الى الفصحى ، أو شكوى الوزير للسلطان ، فى السر . . مما يلجأ اليه الوزراء والحكام عادة فى مثل هذه الظروف . .

فالقضية كانت عند ابن مماتى أكثر من ازاحة الوزير من منصبه وكانت ـ فى الحق ـ سخرية من الاستبداد وصنوف الحكم المستبد واستهتار الحكام برقاب المواطنين وحقوقهم وكرامتهم .

والذى يعود الى تفحص الاحوال الاجتماعية فى ذلك العصر ، يجد أن عامة الشعب لم تكن تتمتع بشىء من الحقوق ، وان الارض نفسها كانت توزع بين السلطان والامراء والجنود ، أى بين الطبقة الحاكمة كما يروى المقريزى فى الخطط (الجزء الاول) مما يؤكد ان المظالم الاجتماعية كانت فاحشة وفظيعة ، تثير حفيظة الناس ، ولو فى السر ، فتنطلق السنتهم بالوان السخرية يتناقلونها انتقاما وتشفيا

والعجيب أن ازدهار الفكاهة ــ كقاعدة عامة ــ انما تتوهج فى عصور الانتقال ، حين تختلط القيم الجديدة بالقديمة ، ولا يتشبث الناس على قيم ثابتة ، ولا يأمنون على حال متواتر

فليس عجيبا أن يظهر رابليه ، أبو الفكاهة الفرنسية ، فى فترة انتقالية كذلك ، فينهش عصره (فى القرن ١٥) نهشا ويسخر من العدوان على الناس والحقوق والمأكولات والنسوة

وقد كان رابليه هو استاذ موليير دون ريب ، لانه سبقه الى مثل هذا النقد الاجتماعى الفريد .

وهذا هو رودلف اريك راسبى الالمانى الذى يشوه صورة القرن السابع عشر ، فيبتكر شخصية هذا الجندى الذى يبالغ فى بطولاته وكأنه هنبقة الاحمق (أو هنبكة كما نقول الان)

فاذا كان ابن مماتى قد استطاع أن يدخل بلاط الحكومة ، وان يصور شخصية معاصرة ، باسمها ، دون مواربة ، فهو لا يخفى عداءه الشخصى له ، ولكن الروايات التى ألفها لا تقتصر على السخرية من شخص معين ، بل تصبح بعد ذلك اسلوبا للسخرية من هذه المبالغة وذلك الشطط فى الغباء الظالم ، أو الظلم الغبى المضحك الاليم ..

واذا كان العلماء المحدثون ، ومنهم فرويد ، يذهبون الى أن الفكاهة تلعب دورا هاما فى حياة الناس ، لانها تستبعد الالم ، ولان الانسان قد زود بامكانيات « هائلة » للتهرب من فرط الالم ، من الاستعانة بغيبوبة الخمر الى الوجد الصوفى الى الامراض العصبية الى فقدان الذاكرة ، فان الفكاهة تحرر الانسان من هذا الالم المفرط وتعيد اليه صحته وتوازنه ، ولو مؤقتا ، ولاشك أن الفكاهة الساخرة من المستبدين ، كانت تحفظ للشعب المصرى هذه الصحة

وهذه الشخصية السوية التى تتألم أفظع الالم ، من فترات الانتقال المليئة بالعجائب والنقائص والنقائض ، ولكنها لا تفقـــد رغبتها فى رفض الاليم المؤلم ، وتمزيقه بالنكتة ، وفضحه باللسان الباتر .



ولقد تحول هذا الكتاب من كتاب مسند الى مؤلف بالذات الى كتاب يؤلفه الكثيرون ، ويضيف اليه العـــــامة كل ما يلفقونه أو يبتكرونه أو يكتشفونه فى المستبدين والقراقوشـيين ، انما يجعلنا نرتفع بذلك المؤلف الى مصاف المؤلفات النادرة التى كان لها أكبر الاثر فى مصر منذ القرن الثانى عشر الميلادى .

فاذا كان المؤرخون الغربيون يضعون حركة الاصـــلاح الدينى اللوثرية فى الغرب ، كتوطئة لنشوء الليبرالية الاوربية ، لمجرد أن هذه الحركة هزت قواعد الكنيسة . وعارضت حقهـــا فى امتلاك الارض ، ويضعون كذلك كتاب مكيافيللى « الامير » كمقدمة لتحرير الفكر السياسى من الفكرة الدينية ، واخضـــاع السياسة للاغراض المادية ، حتى ولو كانت هذه الاغراض دنيئة شديدة الدناءة ويظن هؤلاء المؤرخون أن هـــذه الارهاصات كانت مقدمات لتحرر العقل الاوربى من غيوم القرون الوسطى . فاننا نظن أكثر الظن ، أن كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش ، وخاصة بعد تحوله من كتاب خاص بمؤلف واحـــد الى ملكية عـــامة يضيف اليـــه المؤلفون المعروفون والمجهولون ، انما ساعد على تحرير المصريين من فكرة الحق الالهى فى الاستبداد ، أو فكرة الحكم المطلق حين كان الســـلاطين يجمعون بين السلطة الزمنية والدينية ويطلقون العنان لشهواتهم ومظـالمهم وجموحهم الغريب .

فهذه السخرية التى مزقت فكرة الاســـتبداد ، وشـــوهت المستبدين ، ووصمتهم بالحماقة والشذوذ ، انما هى سخرية ترقى الى ذرا الادب الانسانى الرفيع .

ولقد آن الاوان لان نكشف عن هذا التراث الفكاهى الرائع ، بل وأن نكشف ما دار فى هذه العصور من مقاومات شعبية ـــ لم تـــكن تخلو احداثها من مظاهرات فكاهية أيضا ـــ مثل ثورة عبيد القاهرة (١٣٦٠) كما ذكر المقريزى فى « السلوك » وكذلك الثورة فى عهـــد قلاوون والتى ذكرها أن بطوطة فى رحلته ، وثورة ابن الفلاح المشعشع

(١٤٥٣ ــ ١٤٥٧) . وثورة البــدو قبل ذلك فى عصر بيبـــرس (١٢٥٣) : والهوارة (١٢٥٣) بل وثورات الحرافيش والزعر فى القــرن ١٤ ، على مايرون ابن اياس فى كتـــابه النفيس « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .

فأغلب الظن ، أن كتابا مثل كتاب الفاشوس فى حكم قراقوش ، وما أضيف اليه من مؤلفات على اسمه ، أو اضافات الى نصه ، كان هو الذى يغذى عامة الشعب بفكرة الرفض والاحتجاج ، ويغذيهم بالنكت والنـــوادر والسخرية التى تساعدهم على الاســــتهانة بالمستبدين والقراقوشيين .

وبعض الكتب يبقى بعد ما تدول الدول وتزول العهود ويختفى الحكام .



انني لم اقتـــل أحـدا
حتى أكتب تاريخ حياتي
برنارد شو



مدرسة الثياب الممزقة

كثيرون فى انحاء العالم يعرفون شيئا قليلا أو كثيرا عن سخرية ج.ب.ش ولكن كثيرين يغفلون انه كان مكافحا مؤمنا بالاشتراكية ـ فى وقت عز فيه الايمان بهـذه الفكرة ـ وانه كان يدعو لها على نواصى الشوارع وفى الاجتمـاعات العامة ، بل وكان يخطب فى المظاهرات ، التى تصطدم غالبا بالبـوليس ، وكان يولى الفرار قبل لحظة الارتطام بثوان كلمح البصر !

وقد كتب جورج برنارد شو عن كل شىء فى المجتمع تقريبا .. ولكنه اعتذر عن الكتابة عن نفسه .

وقال : « اننى لم أقتل احـدا .. حتى أكتب تاريخ حياتى » ! وكل ما عندى كتبته فى كتبى ومسرحياتى .. فلا يوجد كاتب عميق لايروى حياته .. فى كتبه ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟!

ولو انك قرأت كتابا عن حياة شكسبير مثلا ، دون أن تعـرف هاملت وكليوباترة ويليوس قيصر والملك لير ! فماذا ستجد ؟ !

لاشىء غير سيرة رجل ينام ويأكل ويشرب ويكاد يشبه كل رجل فى أنحاء العالم !

وهكذا رفض شو أن يكتب قصة حياته ، على الرغم من الحاح الناشرين وفضول القراء ..

ولكنك تستطيع أن تجد سيرة شو الان فى كل كتاب سياسى عن تاريخ الاشتراكية البريطانيـة .. وفى كل كتاب عن المسرح الاوربى .. وفى كل كتاب عن نقد الموسيقى .. فلقد ترك شو تركة ضخمة فى السياسـة والادب والفن ، وطالت حياته الى حد الضـجر بالحياة أو على الاصح الضجر بالمجتمع الذى عاش فيه ، فاسـتهزأ به ، ومزقه وحطم أصنامه .

وشو يتذكر مطلع حياته فى ايرلنـدة . ودبلن .. عاصمتها التى ولد فيها ويتذكر أنه حين ولد كانت عربات الترام فيها ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة . وكانت السيدات الراقيات ، والمهذبون من طبقة « الجنتلمان » يرفضون ركوب الدرجة الثالثة ..

وكانت مدارس ايرلندة تسمى بمدارس « الثياب الممزقة » .. وكانت نساؤهم وأطفالهم حفاة لا يلبسون الاحذية الا فى المناسبات الهامة « كحضور قداس ، أو توديع مسافر عزيز » .

وكانوا ــ وهم اطفال ــ لايقتربون من ابناء الاغنياء الا للاشتباك معهم ، فى حرب تشبه حرب العصابات ..

وقد بدأ شو حياته ساعيا فى أحد البنوك .. ويقول انه بدأ ساعيا متواضعا ، ولكنه لم يكن يجمع الاوراق من سلال المهملات ، أو يلمع اكر الابواب النحاسية .. بل تركوا له شرف احضار السندوتشات فى فترة الغداء « لنفسه » أولا ، ثم للاخرين :

وحين خلت وظيفة صراف بالبنك .. تنبهوا لفطنته ، أو لحسن تصرفه .. فعهدوا اليه بالوظيفة الجديدة ، واصبح « موظفا » لاول مرة .

ولم يكن أحد يتصور أن هذا الايرلندى الذى يجلس بانتظام كل صباح الى جوار شباك صرف النقود .. ووراءه صندوق ملىء بأوراق النقد سيكون له فيما بعد كل هذا الدوى . فلقد بدأ أول الامر صرافا ككل الصيارف ..

بل أخذ يقلد خط الصراف الذى سبقه فى الوجاهة والاتقان والعناية ، وكأنه ولد صرافا ورث المهنة عن العائلة ..

ويقول شو ان الانجليز عموما ليست لهم موهبة خاصة الا فى الوظائف الكتابية الكئيبة ، فى الاعمال البيروقراطية .. فمن الصعب أن تحول اعرابيا بدويا الى موظف حكومة ولكن من السهل جدا ان تحول انجليزيا الى «بيروقراطى موهوب » .

أما كيف يتحول الانجليز الى موظفين .. فالقصة ليست معقدة، وليس فيها سر ..

« فليس عليك الا ان تكون من ابناء الطبقة الوسطى الفقيرة ، وان يعجز أبوك عن أن يعطيك مبلغا من المال تبدأ به حياتك العملية ثم يعجز عن الانفاق على مواصلة تعليمك .. وبعد ان تتعلم القراءة والكتابة .. يحس أبوك بالخجل من أن تصبح ميكانيكيا فى جاراج . ولا يصبح امامك بعد ذلك الا ان تصبح موظفا فى بنك » .

وقد استفاد شو من هذه القاعدة واستفاد من الجلوس على البنك بالقرب من صندوق الاوراق المالية ، ويقول ان هذه الحياة عودته على الدقة والانتباه والعمل اليومى المتواصل ، «وبدلا من ان أحلم أحلام اليقظة ، أخذت اتعود على المهارة الفنية والروح العملية والرغبة فى الاجادة » .

وأخذ شو ، المتواضع الحال شديد الطموح ـ يبادل أحد أصدقائه من موظفي البنك الخطابات . وكثير من الادباء بدأوا تجاربهم الاولى فى الكتابة فى خطابات .. ولكن برنارد شو اتفق سرا مع صديقه على أن يحرقا الخطابات بمجرد وصولها « خوفا من ان تقع فى أيدى المؤرخين .. فيما بعد !! » .

وتعرف شو على ابن عم « بل » العالم الذى اخترع التليفون ، وأخذ هذا الصديق الجديد يوجه ذوق شو الى الموسيقى الرفيعة .

فلقد ورث شو حاسة موسيقية دقيقة من أمه التى كانت تغنى فى أوقات الفراغ ، أو اغاظة فى أبيه !

ولكن الصديق الجديد قدمه الى العزف الجيد ، فبعد أن كان يسمع الاوبرات على اسطوانات تعزفها فرق نحاسية من الدرجة الثانية ، أخذ يكتشف الموسيقى الرفيعة وعزفها المتقن كما يجب أن تسمع !

ويقول انه اشترى اسطوانات أوبرا فاجنر المعروفة ، واسمها لوهنجرين ، وهى قصة من اساطير الجيرمان ، مشوبة بالخيال والعنف ، ولم يكد يسمع بعض الحانها الاولى ، حتى أحس بانقلاب كبير . « ومنذ الحين أصبحت الموسيقى غذائى اليومى » .

وحين يأتيه المزاج . كان يجمع الموظفين المؤهلين والذين بدأوا يعملون تحت قيادته .. وكان يعلمهم بعض الحان الاوبرا .. وكثيرا ما كانت ادارة البنك تضبط ج.ب.ش . وقد ترك أوراق المال والخزانة ووقف فى ساحة الغرفة . يرفع عقيرته بالغناء ، والموظفون ـ من حوله ـ كورس متابع ، أو منافق لرئيسهم المباشر الفنان الموهوب !

ولم يترك شو كتابا فى هذه الفترة لم يقرأه .. وأخذ يدرس الايطالية ، حتى تساعده على « فهم » الموسيقى .. وكان شو يعزف على البيانو . وظل منذ ذلك الحين مرتبطا بالموسيقى والنغم ، حتى ضاق بدبلن وايرلندة وعيشة الارياف .

ويقول شو أن « هجرته » ، وقد استخدم هذه الكلمة العربية باللغة الانجليزية ، بدأت فى عام ١٨٦٧ الى لندن ، ووصل اليها ، بعد أن انفصلت أمه عن ابيه .. وتوفيت شقيقته الشابة التى يحبها بود حميم ، «ودخلت الى لندن ، كأننى من الاجانب ، لأننى ايرلندى

وكأننى ريفى لاننى قادم من الافاليم ، ورفضت لندن أن تسامحنى ، أو تتسامح معى » .

ويصف شو هذه المرحلة من حياته بروح الدعابة . فيقول انه كان فى هذه الاثناء ناشرا لا كاتبا .. وقد ظل تسع سنوات ، لم يكسب فيها ـ من الكتابة ـ الا بضعة جنيهات تعد على الاصابع .

وكان أول « أعماله » الادبية كتيبا من كتب المدارس الابتدائية ..

فلقد أعلن ناشر عن هذا الكتاب .. فأرسل شو الكتيب من باب التجربة والفكاهة .. ولم يهتم بكتابته .. أو مراجعته ..

ولكن الناشر فاجأه بارسال خطاب شكر مصحوبا ببضعة جنيهات ..

واشتعل شو حماسا : فكتب كتابا آخر ـ على هذا الغرار ـ

ولكنه أخذ يحسن فى الكتابة ، وهو جاد هذه المرة كل الجد ، فقد وجد أخيرا مصدرا لبعض المال الحلال .. ويقول شو بسخرية ، ان الناشر لم يسأل عنه !

« اذ يبدو أن الكتاب الذى كتبه شو ـ على سبيل الفكاهة ـ هو الذى أعجب الناشر .. أما الكتاب الذى التزم فيه جادة الصواب وبذل فيه غاية الجهد ، فلم يعجب الناشر ، ولم يتفضل عليه حتى بخطاب .. علم الوصول » .

وظل شو عشر سنوات كاملة يقرأ ويكتب .. دون أن يتحول من ناشر الى كاتب ، ودون ان يعثر على ناشر أو جريدة ، حتى عثر عليه ويليام أرشر . الذى أصبح فيما بعد من كبار النقاد المسرحيين .. وكان شو يجلس فى مكتبة المتحف البريطانى ، التى كان يتردد

عليها من قبل ، رجل له لحية كثة .. وعينان جاحظة ملتهبة : ولا أحد يحس به ايضا أو يدرك أنه سيكون له دوى يقلقل أوربا والعالم فيما بعد . وهو كارل ماركس ..

وكان شو منكبا على النسخة الفرنسية لكتاب كارل ماركس «رأس المال» .. ولم تكن الترجمة الانجليزية قد طبعت بعد .. ولان ماركس كتبها أول الامر بالالمانية ..

وكان أمام شو الى جوار كتاب « رأس المال » لماركس ، التوزيع

الموسيقى لاوبرا فاجنر المشهورة .. « تريستان وايزولد » وهى قصة الحب الخالدة فى بروسيا . وهى تشبه روميو وجوليت عند الانجليز ، وعنتر وعبلة أو جميل وبثينة عندنا :

واقترح عليه صديقه ارشر أن يتولى مراجعة الكتب ، ونقدها فى جريدة اسمها بول مول جازيت ، وبدأ شو يكتب لينشر ، بتوقيع مستعار ، ولم يحظ بنجاح ملحوظ ، ولكنه نعم بصداقة أرشر هذا .. وهو اسكتلندى من عائلة ميسورة الحال ، وكان يعرف النرويجية .. وقد تحمس أشد الحماس للكاتب المسرحى النرويجى ابسن .

وعن طريق أرشر عرف شو مسرحيات ابسن .. وبدأ يتلمس طريقه فى الكتابة ، وابتعد عن كتابة القصة ، وحاول كتابة المسرحيات ، فكتب مسرحية لم يكملها من فصلين وتركها .. وتوغل شو – الى حد التهور – فى كل ما يجده بلندن متصلا بالثقافة والفكر .. فتعرف على الفوضويين : ثم على أتباع جيمس موريس الاشتراكى الانجليزى .. وفى الوقت الذى أخذ يلتهم فيه الماركسية والعلوم الاقتصادية كان يقرأ التاريخ ويتعرف على الموسيقى والثقافة الالمانية .. وفى هذه المرحلة – مرحلة الامتصاص والاحتراق والجدل العنيف – عثر على وظيفة ناقد موسيقى فى جريدة متواضعة الذيوع ..

واخذ شو يكتب باسم مستعار .. وهو كورنو دي باستيو . . وهو اسم آلة الكلارنيت بالايطالية .. ولدهشته – العظمى – كان هذا العمود هو أنجح ما كتبه فى هذه الفترة ..

فقد امتلأ بالذكاء اللماح والسخرية اللاذعة ، وظن كثيرون ان المؤلف ايطالى لان برنارد شو لم يوقع مقالاته الا فى عام ١٨٩٠ ، أى بعد ثلاثة عشر عاما مليئة بالفشل والعناد ..

وتستطيع ان تلمس بذور السخرية فى تربية شو نفسها ، فلقد ورث الموهبة عن أمه ، وورث السخرية عن أبيه . وان كانت السخرية أبيه جافة . ليس فيها لعب افكار ، أو تلاعب الفاظ .. ويبدو أن أباه كان شخصية عجيبة : من تلك الشخصيات التى تأتى بأغرب الفكاهات ، وأفقعها لونا .. ولا تلمح على وجهها ولا طيف ابتسامة .

اذ يحكي . ج.ب. ش عن أبيه قصة قصيرة حدثت فى طفولته تستطيع أن تكتشف فيها روح هذا الاب الغريب ..

فقد كان ابوه يعلمه السباحة

ويقول شو : « أبى هو أول من علمنى السباحة ، وأول من انزلنى الى المحيط » .

« وحين كنا فى الماء ، قال لى :

ــ عليك أن تتعلم السباحة فلقد استطعت بفضلها أن انقذ عمك ــ ذات يوم ــ من الغرق !

وحين خرجنا الى الشاطىء . قال لى ابى : وهو بين الجد والهزل :
ــ لا أخفى عليك اننى لم آسف فى حياتى ــ على طولها ــ على شيء سوى أسفى على اننى أنقذت عمك من الغرق !

ولم يستطع الطفل أن يتبين اذ ذاك ، هل كانت نكتة .. أم قصة حقيقية !

ولكن هذا الايرلندى العنيف العنيد الذى تتوهج فى عقله المفارقات وتصرخ فى قلبه المرارات غزا لندن بقراءاته وثقافته .. وقد شجعته عادته القديمة على العمل اليومى المتواصل على التهام أكبر قدر من الكتابات ، ولم يترك لغة الا وحاول تعلمها ، أو على الاقل التعرف عليها .. فعرف الالمانية والاسبانية والايطالية ، واغرق فى دراسة التاريخ .. والاقتصاد والمذاهب .. والموسيقى والفنون وشكسبير وأبسن وفاجنر وماركس. حتى اختلطت الاغانى بالافكار، والتجارب بالمبادىء ، والقى بنفسه ــ فى ملتقى التيارات ــ متحررا بلا حشا كمسافر بلا وجهة ولا مقر أخير .

وانضم شو الى جمعية « الاصلاح الزراعى » ، وانشق عليها لينضم الى جمعية ناشئة اسمها جمعية الفابيين .. وهى جمعية اشتراكية تكونت من بعض المثقفين والموظفين ..

وقد اختار أعضاء الجمعية اسم «فابيوس» وهو اسم قائد رومانى .. تغلب على هانيبال وهزمه .

وكانوا يريدون ان يرمزوا الى ان طريقة تطبيق الاشتراكية فى انجلترا ستكون عن طريق « التسلل» .. و «الصبر» ، لان فابيوس تغلب على القائد هانيبال العظيم ، بالالتفاف من حوله ، وضربه من الجوانب ، بدلا من الصدام معه وجها لوجه ..

ويقول جون جراى ، أحد اعضاء هذه الجماعة أن شعار الجمعية الاشتراكية الفابية ، تمثل فى هذين البيتين من الشعر .

« فايكف المعترضون ، على طريقتى المتأنية ..

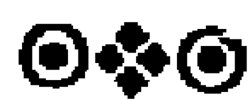
فاننى مثل فابيوس ، اكسب مع الوقت » .

ولكن الجماعة عدلت هذه الشعار « الشعرى » وألف الكاتب بدمور بضعة سطور تشرح الفكرة ، فقال :

« لاشك أن اناة فابيوس وطول تفكيره الذى اعتبره الكثيرون تأخيراً لا مبرر له — انما كان للمحافظة على جميع الرجال من مواطنيه وجماعته .

فعليك ان تنتظر اللحظة المناسبة ، كما فعل فابيوس .. بصبر شديد فى قتاله مع هانيبال .. وحين يحين الوقت ، عليك أن تضرب بشدة ، كما فعل فابيوس ، والا كان انتظارك هباء ، ولا طائل وراءه » .

ويقول شو انه « قرر » مصادقة سيدنى ويب .. وهو أحد العقول الاقتصادية النادرة .. وقد استفاد أكبر الاستفادة من بحوثه ومناقشاته . وبدأ شو يكتب مقالاته التى نشرت مع مقالات آخرين عن الاشتراكية الفابية ، وأحدثت هذه المقالات دويا ، وبدأت تخلق تيارا اشتراكيا «معتدلا» اذا قيس بتيار جماعة هيندمان الماركسى .. ولكنها كانت فى مجموعها جديدة متطرفة فى نظر المحافظين .



وقد بدا الفابيون مشتركين فى كتابة هذا الكتيب الصغير .

— لماذا هذا العدد الكبير من الفقراء ، وفضحوا فى كتابهم سوء توزيع الدخل ، وفحش الرأسمالية البريطانية وادعاءها الاجوف بالعظمة والمجد .. وهى فى الحق فقر واملاق وتضييق .. على الاغلبية .

واستغرقت الجمعية تفكير ونشاط شو .. وكانت الانشقاقات كثيرة والمناقشات عنيفة بين الاعضاء .. أو بين الجماعة والجماعات الاخرى . « واعتقد اننى كنت مفيدا فى هذه الجمعية ، فكلما حدثت مشادة عنيفة . كنت أحاول تحليل موقف الاعضاء . فكانوا

ينتهون الى اتهامى .. وكان يشفع لى أننى ايرلندى واحيانا أننى مجنـــون » ..

وقد أفادته الجمعية فائدة كبيرة .. « فلولا انتقادات الاعضـــاء وهجومهم لمـــا استطاع أن يبلور أفكاره فى مسرحياته » ..

واستطاع شو ان يتخلص من كثير من عيوبه .. واستطاع أن يتخلص أيضا من نظرية الفن للفن .. وهو يقول هنا : «كل محاولاتى تحت شعار الفن للفن ، انتهت بالفشـــل .. وكاننى كنت أغــرز المسامير فى الورق » وهو يرد كل فضل فى تفتحه الفنى وتوقده الفكرى الى الماركسية وماركس .. حتى لقـــد قال « لقـــد جعلنى ماركس اشتراكيا .. وأنقذنى من ان أصبح اديبا » .

وشو يقصد ان الادب الفيكتورى ، وادب شيكسبير كانا يسيطران على العقـــول والقـــلوب فى انجلترا ؛ ولو انه لم يهتم بالماركســـية والطبقات ، ولم ينتبه الى هذا الصراع المدوى الفظيع لاصبح أديبا كلاسيكيا .. يجرى وراء المحسنات اللفظية والموسيقى . ويهرب من الافكار والمبادىء .

وقد نفعته تجربة العمل الصغير المتواضع فى التعود على العمل اليومى . كما يقول ، ثم انضجته مهنة الصحافة .. فى التلفت فيما حوله .. والانتباه لما يدور فى مجتمعه وعصره . ولكنه انتهى بالتقزز من مهنة الصحافة كمهنة .

فهو يقول أن الصحافة اليومية تعلم الادباء كيف يفسدون أعمالهم .. وقد تكون المجلة الاسبوعية مملة . ولكن السهولة ــ ولا أقول التفاهة ــ التى يكتب بها الادباء فى الصحافة تجعلهم يقفون عنـــد انصاف الحقائق ..

والصحفيون يقفون دائما عند البديهيات والظاهر .. ولايتعمقون .. والحقيقة الساذجة لاتزور الا فى ذهن الطفل والعبيط .. ولذلك لا تنفع الصحافة الا للشبان .. ولكن على هؤلاء الشبان أن يعيشوا بزهد وبساطة حتى يســتطيعوا البحث عن الحقيقـــة .. والكتابة عنها بصراحة .

وقد انكشفت لبرنارد شـــو صفاقة المتأدبين فى الصحافة .. وغرورهم بأنهم يبحثون عن الحقيقة .. وهم فى الحقيقة يقلمون كل شىء .. فى وجبات تفســد العقل . وتعطل الدورة الدموية !

ومن هنا زهد برنارد شو فى الصحافة . كما زهد فى العمل السياسى اليومى فى جمعية الفابيين .. واتجه الى المسرح .

وشن شو هجوما مستمرا متواصلا شاملا على الخلاقيات الرأسمالية .. وفضائحها ومخازيها .. فلم يترك مشكلة أو ثغرة الا وفضحها أو وسعها .. ولم يغفل شو عن عيوب الرأسمالية .. وعيوب العمال أيضا .. وخاصة كبار وصغار العمال من الموظفين الذين يبيعون النقابات لاصحاب رءوس الاموال .

بل لقد كان يصف عمال الحركة العمالية بأنهم رؤوساء شركات رأسمالية اسمها النقابات ..

وأخذ يفضح الرأسمالية .. فهو يحلل الزواج غير الموفق بين الغنى القبيح والفتاة التى لا تملك سوى بيع فضائلها .. وهو يفضح مهنة الدعارة .. ويفضح الذين يبيعون أجسادهم من الشبان .. ومن وراء كل ذلك تقــزز من تأثير المال على النفس وتأثير الرأسمالية على المجتمع ..

وقد كان شو من اعدى أعداء السطحية والانتهازية .. وهو فى هذا لا يفرق بين سطحية الاغنياء المغرورين .. أو انتهازية «العمال» الذين سموهم فيما بعد « اصحاب الياقات البيضاء » . . لانهم لا يعرقون ولا يتعبون ولكنهم يبيعون عرق زملائهم فى مفاوضات ومقاولات وصفقات نقابية .

وقد ظل شو مخلصا للافكار الثورية التى امتصها فى صدر حياته .. فهو يهزأ بالعمل البرلمانى التقليدى . ويقول ان العمل البرلمانى لا يغنى عن الثورة .. وهو ينبه زملاءه من الساسة والقادة « ان من المحتمل أن تستسلم الرأسمالية بلا قتال ! »

ولكن أى سياسى يعتمد على هذا الاحتمال .. يكون مفرطا شديد الافراط فى التفاؤل .

وهو يقول على لسان ابطال كثيرين فى مسرحياته « عربة التفاح » و « على الصخور » :

ــ « مادامت القوة العنيفة تحمى هــذا النظام الرأسمالى فلا تسقطه سوى القوة » .

ولكن برنارد شو نفسه أحس انه لا يستطيع أن يصبح « جنديا »

فى معركة الاشـــتراكية .. لذلك اختـــار أن يكون « قديســا » ساخرا ..

فهو يضرب ذات اليمين وذات اليسار .. يســخر من الحــاكم الرجعى . ويقول على لسان الملك فى مسرحية « عربة التفاح » .

لو اننى كنت أنسانا حقا لما أصبحت ملكا .

اننى مجــرد صنم ..

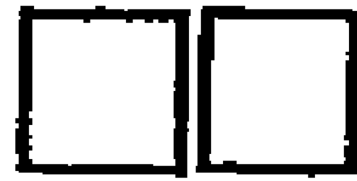
وكل ما أستطيعه أن اكون صنما رحيما ..

وهو فى نفس الوقت يســخر من رؤســاء النقابات الرجعيين او الانتهازيين فيقول على لسان رئيس النقابة .

ـ لا يوجد ملك يطمئن على ملكه مثل رئيس النقابة .

وهو يهزأ من الحركة العمالية المتلعثمة المترددة .. التى استولى عليها الانتهازيون وتجار الصفقات .. والذين يرضون بالحصول على الاعانات الاجتماعية بدلا من الكفاح السليم .. فيقول :

ـ اطلق قطــة فى الارض .. تجــد القطة قوت يومها .. لكن أطلق عاملا انجـليزيا فســتجده يموت جـوعا .. فاذا بدا لك ان تشتريه بقروش قليلة .. تدفعها له معونة بطالة .. استطعت أن تأمن شره !



أية ثورة تتخلى عن الشرف .. تتخلى عن مبادئها .. لان الثورة – قبل كل شيء – هي الشرف.

البير كامي



● البير كامي ●



الشمس مجّانا

آخر من عرفت بحادث ابنها ..

كانت فلم يكد البير كامو يصاب فى حادث سيارة سريعة ، ويموت ، حتى أوقفت اذاعات العالم برامجها ، لتذيع الخبر المفاجىء .

ولكن أم البير كامو لم تسمع الخبر فى وقته ، لانها لم تكن فى الامس تستطيع أن تسمع ؛ فلها أذنان ضعيفتان الى حد الصمم ..

وعرفت الخبر بعد وقت ..

فقد جاء اليها شقيقها لوسيان ، الذى يعيش معها ، وهو أصم ، بل ولا يتكلم أيضا على الرغم من قوة بدنه ، وذكاء عقله وقلبه !

ولم يجرؤ أحد على أن ينقل الخبر الى الام ، فكان على شقيقها أن يتفاهم معها .

وكانت تجلس ذلك المساء فى البيت الصغير ، الذى يتكون من طابق ودور أرضى ، وبلكونات صغيرة ، ومدخل متوسط الارتفاع ، ويطل على شارع متواضع فى مدينة مندوفى بالجزائر ..

وكانت الام لاتحس بمقدم أحد من زوارها أو ضيوفها ، أو أهل البيت الذين يعيشون معها ، الا حين تضىء لمبة صغيرة فى الردهة الواسعة التى تجلس فيها دائما . .

وكانت حين تضاء اللمبة ــ بدلا من ان يدق جرس الباب الخارجى ــ تقوم ، وهى العجوز المهضومة الجسم لتفتح الباب بنفسها . .

ولكنها هذه المرة لم تكد ترى النور يضىء ، ولم تكد تهم من جلستها المعتادة حتى كان شقيقها لوسيان يقف أمامها وسط الردهة الواسعة .

وخطف منظره قلبها .

كان لا يستطيع أن يقيم رأسه ، لانه يميل منه ، وكان قوة أقوى من النوم ، واقوى من التعب تشده وتنكسه .

وقف لايعرف كيف ينقل اليها الخبر .

كيف يشرح لها حادث السيارة .. وكيف يشرح لها حادثا لم تكن تتوقعه ، بل وكيف يقول لها :

ـ ان الشاب مات فى الخامسة والاربعين ؟

ولم يتحرك ، وبدا له كل شيء أحمر اللون داكنا ، بين السخونة والالتهاب وأحس كأن ضربات غليظة تلكم عروقه فى كل مكان ، وأن قدميه لاتحملانه .. وكأنما تورمتا ، فلم يعد يحس بالارض .

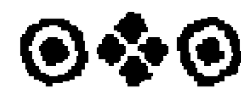
ووقفت الام ، والجزع يطير عقلها ..

وماج شقيقها ، ومال ، وكأنه عود رفيع من الحطب . وتمايل الشقيقان .. وكأنهما عودان من الحطب ، ولوسيان لايفعل شيئا .

وانفجر لوسيان .. العريض الضخم فى البكاء وكأنه طفل .

وبكت شقيقته من الحيرة . وحزنا على حزن شقيقها ، قبل ان تعرف منه الحقيقة .

وقبل أن يكتشف ان المصاب مصابها وان الذى مات هو ابنها . وان عليها أن تحزن حزنها الخاص .. بقية أيامها .



ولكن .. كثيرين كانوا يعتقدون ويقولون ان احدا لم يمت من الحزن .

وحين رآها الجيران ـ بعد ستة شهور ـ تخرج من عزلتها ، وتجلس فى البلكونة وتتفرج على المارة قالوا :

ـ بدأت المسكينة تفيق من الصدمة ؟

ولكنها كانت تجلس فى البلكونة ، وتسند رأسها على حديدها ، ولا تسمع أو ترى شيئا ؛ أو كانت حين ترى المارة يسيرون ، فكأنهم يتزحلقون بعيدا عنها على قباقيب الجليد .

ولم تعد تأكل ، ولم تعد تحس بطعم شيء .. سوى حديد السور فى البلكونة الذى كان مالحا صلبا ، وهى تضع أسنانها عليه ، من شدة الجزع .

فهى تفكر فى ابنها حين كان رضيعا ومات أبوه ، وهو لايزال فى أحضانها .

فقد مات أبوه فى حرب ١٤ ، جنديا بسيطا ..

وتفكر فيه . وهو صغير يذهب الى الكتاب يتعلم آلف باء .. ثم يتفوق حتى يفوز بالمجانية ، فيوفر لها المصاريف .. حتى يصل الى الثانية ويلعب الرياضة ، وينفوق فيها ، وخاصة كرةالقدم ، ويمثل . فيفوز فى مباريات التمثيل المدرسية .

وكانت تحس بالسعادة ، ولكنها كانت تحس نحوه بشيء من قلة الحيلة ، لانها تضعف وهو يقوى .. ولانه ذكى الفؤاد ويتفوق فى كل شيء ، يتعلم ويمثل ويكتب الشعر ، ويلعب كرة القدم وكلما زادت قوته أحست أنه يبعد عنها لانها لاتعرف القراءة . ولا تستطيع حتى أن تستمع الى فتاها الذكى النجيب ..

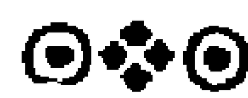
واتسعت المسافة بينها وبينه ..

وسار البير كامى بعيدا عن أمه ، لانه شق طريقه وحيدا . ولعله لم يلتفت الى أمه ، الا حين انتهى ــ تقريبا ــ من رحلة الادب ، وحين حصل على جائزة نوبل .

وكانت أمه تحس بأن ابنها وحيد .. يعيش مع نفسه ومع كتبه، ومع افكاره .. وكان يبتعد عنها . على الرغم من العطف الذى كان يبديه لها أواخر أيامه ..

كان يبتعد عنها ، لأن افكارا غريبة تشغله ، ولانه يكبر ويكبر .. وهى تضعف حتى اختطفه الموت ، فابتعد تماما ..

وماتت بعد عام ونصف ، حين ظن الناس أنها أفاقت من الصدمة !



والاطفال حين يستبد بهم الالم .. لاتتحمله اجسادهم الصغيرة ولذلك يطلقون ارجلهم للجرى ، وقد تعود البير كامو أن يجرى فى حياته ، وحيدا .. والذى يجرى ينطلق وحده دائما ..

بل لعل أغرب مافى حياة هــذا الاديب انه كان يحب الرياضة ، ويحب اللعب مع الآخرين . وكان يلعب كرة القــدم ، ولكنه كان يختار دائما مركزه « الجون ».

فالجون هو اللاعب الذى يلعب مع الآخــرين . ولكنــه يقف دائما وحيدا !

وكان البير كامى يسير وحيدا ، ويدرس وحيدا ، ويقف وحيدا .
والشيء الوحيد الذى تعود عليه البير كامو منذ صباه هو الوحدة .

وهو يصف الجو الذى تربى فيه فيقول :

« فى هذا البيت ، كانوا يعيشون خمسة : الجدة ، وابنها ، وابنتها، وطفلان » .

الابن ــ وهو عمه ــ كان لايسمع ، ولا يتكلم . .

والبنت ــ وهى أمه ــ كانت لاتسمع وكانت تفكر بصعوبة . . »

والعاقلة الوحيدة ، المتحكمة فى البيت كله كانت جدته . . لامه . .

ولا يزال يذكر بعض اللحظات الاليمة التى مرت بصباه . . فقد كانت الجدة تنتظر حتى تأتى زائرات من السيدات . وتسأله هذا السؤال المحرج امامهم :

البير ، من الذى تحبه أكثر جدتك أم أمك ؟

وكان الصبى يرد أمام الزائرات :

ــ جدتى ! .

ولكنه كان يحس بحب غامض صامت أخرس ، يتجه اتجاها آخر .
ولكنه لايجرؤ على أن يفصح عنه . .

« ففى ذلك البيت المتواضع لم يكن هناك غير دور واحد ، وكانت سلالمه مظلمة وأصبح بعد سنوات عديدة يعرف كيف يشق طريقه وحده ، وهو فى قلب الليل وكان يعرف كيف يقفز السلالم ، دون أن تتعثر خطاه ، فقد ذاب جســـده فى البيت وعرفت اقدامه ارتفاع السلالم ، وعرف كيف يضع يده فى المكان المناسب على درابزين السلم ، دون أن يستطيع التغلب على ذلك الخوف الغريزى . . من الصراصير

وقد استطاع الصبى أن يبتعد عن دائرة عائلته الغريبة ــ مع احتفاظه بحبه لها ــ بالرياضة والدراسة الحساسة المتواصلة .

. وأحب دراسته حبا عظيما ؛ وتعلق بأول مدرس علمه الحروف الاولى فى المدرسة الابتدائية ، الى الحد الذى جعله يهدى اليه الخطاب الذى القاه ــ بعد أربعين عاما ــ فى احتفال جائزة نوبل .

واهتم كامى بالشعراء ، والكتاب ، والفلاسفة .. واهتم بالذات بفلسفة اليونان : وأخذ يقرأ مارسيل بروست . مؤلف « ذكريات وقت ضائع » ، وفى عام ١٩٣٦ اختارلدبلومه العالى دراسة عنوانها : العلاقة بين الروح اليونانية ، وبين المسيحية وبين الفيلسوف اليونانى أفلاطون ، والفيلسوف المسيحى سانت أوجستان .

ولكن البير كامى أصيب بمرض فى صدره واضطر أن يقطع دراسته . وظل فى المستشفى ثلاثة شهور متوالية وحيدا .

ولم يستطع أن يكمل دراسة الاجرجاسيون التى تؤهله للتدريس .. وعرضوا عليه أن يعمل مدرسا فى مدرسة سيدى أبو العباس بالقرب من مدينة قسطنطينة ولكن التدريس مرهق ، فبدأ يكتب لنفسه ، ثم التحق باحدى الصحف اليومية التى تصدر بالفرنسية واسمها « الجمهورية » وأخذ ينشر تحقيقات صحفية عن الفقراء ، وعن القبائل فى جنوب الجزائر . حتى تنبهت اليه السلطات ، واعتبرته غير مرغوب فيه ، ووضعته فى قائمة المشبوهين .

فسافر الى باريس ، ليعمل مع اندريه مالرو الكاتب والقصاص ، ولكن الحرب اشتعلت ، واحتل الالمان باريس . وبدأت المقاومة فى صفوف المثقفين .

وترأس البير كامى تحرير جريدة «كومبا» أى الكفاح ، التى تصدر سرية لتقاوم النازية والاحتلال ، وبدأ يكتب قصة « الغريب » ومقالا طويلا اسمه « أسطورة سيسيف » .

وبدأت شخصية البير كامى تتفجر ، وتظهر وتسطع .. فكانت مفاجأة لباريس بل وللادب الاوربى كله .

فقد استوعب البير كامى الحضارة اليونانية ، وجاء الى باريس بشىء جديد على أوربا هو الطبيعة : الشمس والهواء والجبل والرمل ، وحزن البسطاء .

فاذا فتحت صفحة من كتاب لكامى ، هبت على وجهك نسمة من البحر ، بل وشممت رائحة السمك .

فالبير كامى ، قبل أن يكون أديبا أوربيا ، من هؤلاء الادباء الذين يسمونهم أدباء « البحر الابيض » .

لان فيه شيئا كثيرا من أبى القاسم الشابى شاعر تونس ، وفيه شىء من طه حسين لان فيهم — هم الثلاثة — نوعا من الصحو

المبكر ، والنغم المضيء والموسيقى اللفظية التى يتميز بهـا الادباء الذين يعيشون قريبا من البحر ..

واذا كان البير كامى قد هضم أوربا والتراث الاوربى ، فلقد ظلت أيام طفولته مطبوعة فيه ، ولذلك جاء لهذه المدن المظلمة الحزينة .. المليئة بالضباب والمليئة بجنون النازية ، بروح جديدة ثائرة ، معذبة بالحرية والعدل .

وهذا هو الشيء الجديد الذى أتى به الى أوربا .

وكتابات البيركامى مليئة بالاعترافات ولكنها اعترافات محرقة . فحياة كامو — وهو طفل — مليئة بالاحزان وبالوحدة والبطولة والمقاومة ، ولذلك فهو يحورها وينقلها بشيء من الفن الى جو آخر ، وزمان آخر ، فتصبح مسرحية فى روسيا ، أو مقالا طويلا فى معنى الحرية ، أو بحثا فى أساطير اليونان القديمة .

ففى قصة « الغريب » أول وأشهر قصصه يحكى قصة شاب أسمه ميرسيلو موظف متواضع .. متوسط القامة .. فى منتصف العمر ، لا يميزه شيء عن بقية الناس ..

ماتت أمه وحيدة فى مستشفى للفقراء فيذهب لدفنها ، وهو حزين ، ولكن بلا اهتمام ، ثم يعود الى المدينة ، ليقابل فتاة يحبها حبا مؤقتا ، ويذهب معها الى أحد أفلام فرناندل الضاحكة .. ويذهب ليستحم فى البحر ، وله صديق له قصص ومغامرات نسائية ولا يعرف الكتابة .. فيطلب منه أن يكتب له خطابا غراميا ، فيكتبه غير راغب أو مقبل .

ويذهب مع صديقه الى البلاج .. فيفاجأ ببعض أعداء صديقه يهددونه بسكين فيهربان منهم ، ويأخذ البطل من صديقه المسدس الذى يحمله ، حتى يجنبه التورط فى حادث سخيف غير مقصود .

ويفترق الصديقان ، ولكن البطل يلتقى صدفة من جديد بأعداء صديقه ، ويشهر أحدهم عليه سكينا ، وتلمع السكينة فى الشمس ، وتضرب الشمس بأشعتها فى عين البطل ، ويأخذه ذعر مفاجيء فيطلق رصاصة على غريمة الذى يواجهه بالسكين فيموت .

صدفة سخيفة !

ويقبض عليه ، ويحاكم ، ويحمل الاتهام عليه ، ويحكى ماذا فعل البطل عند دفن أمه .

– لقد ذهب الى السينما ، والتقى بفتاة !

ويتأثر المحلفون بهذا الابن العاق الذى يتنزه بمسدس ، ويطلق الرصاص على أول عابر طريق ، بلا سبب .

انه يستحق الموت بلا شك ، ولا يستحق الرحمة من أحد .

وصفقت باريس للكاتب الجديد ألذى يكتب عن مأساة الانسان الحديث وهو الرجل العادى الذى يعيش حياة عادية . ولكنه فجأة يقع فى المحظور ، ويتعرض للخطر من أجل صدفة عابثة .

والبير كامى يتهم حياة الناس بأنها عادية ، وأقل من عادية ، انها سخيفة ، يسحقها الروتين ، ويمزقها الملل ، فالانسان يصحو من النوم ، ويركب الترام ، ويقضى ٤ ساعات فى المكتب أو المصنع ويتناول طعامه ، ثم ينام ، وهكذا يمضى الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة .. بنفس الترتيب ، ونفس الروتين ؟ .

فأين هى الحياة الحقيقية ؟

وهل يمكن أن يضيع عمر الانسان بين هذه المحطات ، وكأنه عربة ترام قديمة مستعملة مستهلكة ؟

والبير كامى يتهم الحياة فى المدن بأنها مغطاة بالصدأ ، فالانسان الحديث ، أعطى ظهره للطبيعة ، وأعطى وجهه للمدنية ، وضاعت حيـــاته الحقيقية .

وحياة الانسان تشبه « ذلك الرجـل الذى تراه يتكلم من وراء لوح من الزجاج فلا تسمعه ، ولا تفهمه ، ولكنك تراه يتكلم » .

ولكن ما هى حياة الانسان ؟

هذا هو السؤال الملح اللجوج ، الذى يسأله كل المفكرين والادباء فى هذا العصر .

ولعل عصرنا هو الوحيد الذى يتميز بكثرة النظريات ، وكثـرة المحاولات لتغير الحياة .

انها صحوة مثل صحوة اليونانيين الذين كانوا يفكرون فى الكون وأصـــل الكون .. .

فالبعض كانوا يقولون ، انما أصل الكون هو النار ، والبعض كان يقول أنه الماء .. والبعض كان يناجى السماء !

وقد انحصر اهتمام المفكرين — فى هذه الايام — فى الانسان على الارض ..

من هو الانسان . ولماذا يعيش ، وما هى غايته من الحياة ؟

وتتابعت التفسيرات ، والتفسيرات تركز النظر والفكر عادة على عامل واحد .. يبسط هذه العقد ، ويرفع هذه الحيرة .

فماركس يقول أن الاقتصاد — غالبا — هو الذى يحرك التاريخ .

وفرويد يقول ان الجنس غالبا هو الذى يفسر الانسان .

وكير كيجارد يقول أن القلق غالبا هو سر الوجود .

وحين جاء البير كامى قال ان الانسان يشبه سيسيف بطل الاسطورة الاغريقية فهناك أسطورة تقول أن سيسيف محكوم عليه بأن يحمل صخرة كبيرة الى أعلى قمة الجبل ، حتى اذا كاد أن يدركها ، غلبته الصخرة ، فخارت قواه ، وعادت الصخرة الى السفح من جديد ، وبدأ سيسيف يصعد الجبل .

وهذه أسطورة قديمة ، ولكن كامو يفسرها تفسيرا جديدا ، فهو يقول أن لذة الحياة هى فى رفع الصخرة ، وليست فى غاية الحياة ..

فليس للحياة غاية سوى الموت !

ولذلك فلذة الصعود — حتى ولو كانت الصخرة ستعود — هى اللذة التى تجعل الانسان يجد ويجتهد ويحيا مع أنه يعلم أن الصخرة ستغلبه آخر الامر وبكل تأكيد .

فالناس جميعا يعلمون أنهم سيموتون ومع ذلك يتمسكون بالحياة ، وكأنهم يعيشون أبدا .

وهكذا فالحياة خليط من اللذة والسخف وتتأرجح بين المعقول وغير المعقول ، وليس هناك شىء معقول تماما ، ولا مجنون تماما .

انها وتر متوتر بين الجنون والعقل ، والحياة والموت ، وهذا هو سر القلق ..

ولذلك فكتابات كامى تعبر عن تفاؤل مقبض ، أو كما يقول الكثيرون لا تعبر عن اليأس ، ولكنها تعبر عن انعدام الامل ، فاليأس قد يصيب الحياة بالخمول والاستسلام ولكنك قد تفقد

الامل ، ومع ذلك تظل تمسك بخيط الحياة ، ما دامت هناك فرصة واحدة على مليون .

وكان يصرخ على لسان الامبراطور كاليجولا فى روايته الشهيرة ، بأن الانسان محكوم عليه بالموت . والموت هو اليقين الوحيد ..

انه كالشمس ، أو كالبحر .

فالانسان يكذب ويتلون ، ولكن الشمس تسطع ، وليس وراءها غرض من الطلوع .. والبحر يهدر ، لا يسكت أبدا ، ولونه أزرق، ولن يغير لونه أبدا ..

وسر اعجاب البير كامى بالطبيعة انها لا تكذب ، وأنها صادقة . وشريفة بأرفع ما يكون معنى الشرف .

ولكن الذى يغفر للإنسان كل شيء هو الحرية ..

والانسان حرية قبل كل شيء. لان الانسان ــ كما يقول كامى ــ هو المخلوق الوحيد الذى يرفض أن يبقى كما هو .. انه مستقبل .. فالانسان وجود ومستقبل والحيوان وجود فقط .

والذى اكتشف المستقبل من المفكرين هو هيجل ، فقبل هيجل كان المفكرون لا يعتبرون الانسان جزءا من التاريخ .

كانوا يضعونه فى المكان ، ولكن هيجل اضاف الى المكان بعدا ثانيا هو الزمن ، وبالتالى قال أن هناك مستقبلا ، وأن هناك تطورا نحو هذا المستقبل .

واذا كان هيجل قد اعتبر أن الحركة نحوالمستقبل تتم بالتناقض تماما كما تنطلق النفاثة . بالفعل ورد الفعل .. فأن التاريخ يتطور بالتناقض بين العبودية والحرية .

والحرية عند كامى هى أن يقول الانسان لا ..

فمن هذه الكلمة تبدأ الحرية ويبدأ الوعى بالحرية ، والوعى هو انفعال وعاطفة ووجد أشد تعذيبا من وجد المحبين والعشاق ..

وقصة الانسان هى فى الواقع قصة السيد والعبد .

والسيد مسكين ، على عكس ما قد يظن الكثيرون ، لان ارادته المطلقة ، فى الوقت الذى تصبح فيه مطلقة ، تقبض على الريح ما دامت ألغت الحرية ، فاعتراف الذين الغيت حرياتهم ليس

اعترافا لانه اعتراف موتى أو من رجال كانوا حرية .. وأصبحوا عبيدا .. واعتراف العبيد بالسيد اعتراف ناقص مبتور مصاب بعاهةاسمها الخضوع أو النفاق أو الوصولية ، ولذلك فهو اعتراف مشوه ومهزوز ، كالجلوس ــ ساقا على ساق ــ وتحتك بركان .



وانعقدت صداقة ــ فكرية وخاصة ــ بين سارتر وكامى .

وانعقدت الصداقة بين الرجلين لانهما يعجبان بنيتشه ، ويكرهان أو يحتقران النازية ، ولانهما يخلصان للفكر الالمانى ويستوعبانه ، ويخرجانه فكرا فرنسيا رقيق القاطع ، شفاف السريرة .

وانعقدت الصداقة بين الرجلين لانهما تخرجا فى مدرسة عملية واحدة ، هى المقاومة ضد النازية .

فسارتر كان يقاوم ، وكامى كان يقاوم .

وطوال الزحف على باريس ، بهذه الافكار الادبية والفلسفية نسى الصديقان ما بينهما من خلافات داخلية ، ولــكن ما كادت الامور تستقر فى عام ١٩٥٥ ، وبدأت فترة ما بعد الحرب تتغير .. حتى افترقت الطرق ، وكان الخلاف على كلمة هى حب وعشــق وهم ومأساة ومسئولية المفكرين فى هذا العصر : الحرية .. فسارترعاقل .. وكامى عاطفى . وسارترمادى ، وكامى طبيعى . وسارتر يعترف بالواقع ، ومنه يبدأ العمــل ، وكامى سجن نفســه فى هذا المعنى المطلق للحرية ..

فهو يقول أنا أثور ، اذن فنحن موجودون ، على طريقة ديكارت الشهيرة : أنا أفكر ، اذن فأنا موجود . فاذا كان ديكارت قد اعتبر الفكر هو علامة الوجود . فكامو يعتبر الثورة علامة الوجود .

لمن ؟

للجميع .. فهو لم يقل انا أثور ، اذن فانا موجود .. بل يقول انا أثور فنحن موجودون ، فوجود الجميع يتوقف على حرية الفرد



والبير كامى ، حين أصبح من أشهر أدباء العــالم ظل مخلصا لذوقه ومزاجه القديم ، فهو الكاتب الوحيــد الذى كان يكتب فى

غرفة بسيطة بباريس ، مؤثثة ببســـاطة وذوق ، فيها كتب قليلة وبضع زهور وبضعة رســوم ، ومكتب غريب ، لانه هو الكاتب الوحيد الذى كان يكتب وهو واقف . فالمكتب رسم على طريقــة الكاتب التى تكتب عليها ، وانت فى مكاتب التلغراف ، عال بقدر قامة الرجل . .

وكان كامى يفضل الكتابة بهذه الطريقة الغريبة واقفا . .

وفى باريس ، حيث جاءته الشهرة والمال والمجد لم يعبأ بشىء من التمتع بالشهرة أو المال أو المجد .

فعندما جاءه المجد ـ بعد جائزة نوبــــل ـ قال أنا لا أبحث عن المجد ، انما أبحث عن السعادة .

وفى باريس تتجمع فنون الترف، فهناك فن للحدائق «الفرنسية» والمطبخ «الفرنسى» له أفانين وابتكارات ، والموضة الباريسية لها مغامرات وشطحات وأثاث البيوت له عصور وصور ، وفى باريس كل فنون المذاق والذوق .

ومع ذلك ظل كامى لايعبأ بكل هذه الملذات الحسيــة ، وكان يقول :

ـ مازلت أحتفظ بهذا التفاؤل الذى يؤمن به الفقراء ، والذى يساعدهم على الحياة ، والحق اننى لم أتمتع بحاسة الملكية ، ولم أتصور أن أعيش مالكا بين املاكى .

فالشمس والبحر والهواء ـ أهم شىء فى الحياة ـ مجانا . . بل اننى لا أتصور الحياة الا فى غرفة فندق ، لان هذه الغرفة لن تكون ملكى . .

نعم . . أريد أن أعيش فى غرفة فنـــدق ليست ملكى ، بل وأن اموت فيها .

وأمنية الموت فى غرفة فندق لون من التصوف والترفع عن الملكية

وقد مات البير كامى فى سيارة . . حيث لايمكن الاقامة دائما . . تماما كغرفة الفندق ، والفرق أن السيارة تنطلق احيانا الى الموت . . فجأة .





● سيمون دى بوفوار ●

يا لها من مشقة ، أن نتقدم فى الحيـــاه وحدنا ، منفــردين ، لا أحد معنــا .

امرأة ذات سيادة

لماذا

لا يوجد عندنا أدب نسائى ؟ ولماذا تكتب أغلب كاتباتنا النابهات ـ فيما عدا قلة نادرة جدا ـ كما يكتب الرجال .. نفس الاسلوب .. نفس الضخامة أو الرصانة أو الجزالة .. فلا تجد فى كتاباتهن أنفاس المرأة .. أو نفسيتها ومشاعرها الا فى النادر القليل ..

ولماذا تجد هذه اللهجة النسائية فى كاتبات مثل مدام دى ستايل وجورج صاند ، ثم تجدها بعد ذلك فى كوليت الفرنسية ، والآن تجدها فى سيمون دى بوفوار ، سيدة كاتبات العصر . أو عند مارى مكارثى كاتبة أمريكا الاولى ؟ !

عند دى ستايل ، وجورج صاند تجد الرقة والرومانتيكية . زهرة الصالون الادبى الذى يعبق بالشعر والمنادمة وأحيانا بالمغامرة الخفيفة أو المفجعة . ثم كوليت هذه الاديبة التى كانت تحب القطط ، وتعدد الأزواج ، والتى كشفت عن عالم المرأة فى بداية هذا القرن ، بداية التحرر من قبضة الرجل ، عالم الغيرة القاتلة ، والفواجع الغرامية والمباريات العاطفية ، عالم لا يمكن أن نحس به كرجال أو نكتب عنه كرجال ، لانه عالم مغلق تماما .. وقليلا ما تتكلم المرأة . وأقل من ذلك أن تتكلم بصراحة ، ولكن كوليت تكلمت ، فأفاضت ، وكشفت أسرار المرأة فى عصرها .

واذا بسيمون دى بوفوار ، تصبح الآن من بعد هؤلاء الكاتبات . اكبر أديبة فى العالم ، لانها لم تنس أنوثتها ، وحتى لو كتبت أعمق البحوث وأصعبها ، فقد راعت أن تكتب بقلم فنانة وأديبة ، ولم تكتب هذه المجلدات الضخمة التى كتبها سارتر عن الوجود والعدم ، بل ولم تكتب مسرحيات أسطورية أو عصرية ، وحين كتبت هذه المسرحيات لم ترض عنها ، وأقرب الكتابات اليها هو الاعترافات .

ظاهرة عجيبة تسترعى الانتباه بلا شك .

هل السبب هو نقص خبرة أديباتنا .. أو هو هذا الحجر الصحى الذى يفرضه القراء ، وأغلبهم من الرجال ؟

هل هو نقص فى الصراحة أو نقص فى الجرأة ؟

سؤال نطرحه ، ونتركه بلا جواب ..

بصراحة : لاننى لا أعرف الجواب تماما !

فالذى أثاره موضوع لا يتصل بأدبياتنا أو أدبنا العربى ، انما أثار مكامنه ما وصلت اليه هذه الكاتبة الفرنسية سيمون دى بوفوار من صيت وشأن ، حتى ان كتابين كبيرين ظهرا عنها فى وقت واحد ، واحداً منهما كتبه فرانسيس جيسون سكرتير جان بول سارتر ، وصديقه ، وبالتالى صديق سيمون دى بوفوار .

وفى هذا الكتاب الاخير ، يحاول المؤلف أن يضع سيمون دى بوفوار ، فى وضعها الصحيح بين الادباء والمفكرين .. ويحاول أن يضع كتبها فى الترتيب الصحيح ، وحين سألها ما هو أبغض الكتب اليك قالت : كتابى الاول

وكتاب « الزحف الطويل » الذى كتبته عن الصين

وما هو أحب الكتب اليك ــ وهذا سؤال تقليدى لا يتوقف صحفى أو كاتب عن أن يسأله . قالت : الجنس الآخر .

وفى فرنسا كتاب عاشوا على المغامرات العاصفة ، والرحلات الشاذة .. وكانت حياتهم شاذة ، أندريه مالرو مثلا ، كان يعيش على المغامرات الجنونية فى الهند الصينية والصين قبل أن يكتب حرفا واحدا ، أندريه جيد ، صاحب الرحلات الطويلة فى الشرق والغرب كان مصاباً بالشذوذ فأنطقه أدبا وتجلت منه آيات الروعة الادبية ، من فرط الحساسية والتوهج ، جان بول سارتر نفسه ، حياته تقلبت بين المقاومة والسجن والحياة الاكاديمية .. مرض فى بطنه من فرط الحساسية النفسية ، حتى انقلب « الغثيان » عنده من احساس نفسى الى مرض بالبطن والجسد .

وبعض أدباء فرنسا النابهين كان لصا « رسميا » مثل جان جينيه الذى تبناه سارتر أخيراً ، أو كان ساديا شاذا مثل الماركيز دى ساد . وبعضهم وصل الى شىء ما فى حياته .. وكثيرون فشلوا فأصبحوا أنصاف أدباء ، أو قراء ملمنين ، أو ناشرين مغامرين :

والقاعدة العامة أن فرنسا لم تعرف أديبا نابها ، الا وكانت حياته أيضا عريضة عميقة ، ولكن حياة هذه الاديبة ، التى تمتلك اليوم ناصية هامة فى الادب ، هذه السيدة القريبة الى القبح النبيل منه الى الفتنة الانثوية .. سيمون دى بوفوار - كانت حياتها باهتة جدا .. عادية جدا .

فكيف استطاعت سيمون دى بوفوار أن تصبح أديبة . وان تضيف للادب صفحة وصفحات ؟ !

لعل السر الحقيقى فى أدب سيمون دى بوفوار أنه أدب الحياة العادية اليومية .

حياة الفتاة . الطالبة . ثم المدرسة . ثم الصديقة . ثم المحبة والعاشقة ، حياة تمر بأى امرأة .

والسر الثانى فى أدب سيمون دى بوفوار أن الوجودية نفسها تتكلم عن وجود الانسان . عن وجوده فى الحياة . مع الآخرين ، عن أبسط حوادثه . وأبسط حكاياته ، وفى هذه الحياة البسيطة العادية من ملايين وآلاف ملايين الحياة ، يوجد سر الفكر العميق وسر الفلسفة الكبيرة ، فلم يعد الادب العظيم هو الذى يتناول أعظم القضايا وأعقدها فحسب . بل ان الادب العظيم أصبح هو الادب البسيط .

فى حياة المرأة البسيطة . الفتاة العادية ، المانيكان أو التلميذة أو السكرتيرة أو المدرسة أسرار ومواقع لو سلط عليها الاديب أضواء لكشف المعجزات ، وكتب المعجزات .

وقد فعلت سيمون دى بوفوار ذلك .

تناولت حياتها بالتشريح ، غاصت فى نفسها . تعمقت فى حياتها تلك الباهتة ، حتى فى مللها، وتثاؤبها ، ولزوجة حياتها اليومية ، فى هذا السخف الروتينى الذى توارثته عن عائلتها ، فى الآراء التى صدمتها ، واصطدمت معها ؛ ومن هذا النسيج اليومى الرقيق ، كتبت أروع الاعترافات ؛ وأروع صفحات الادب .

وبهذا بدأت سيمون دى بوفوار ما أسميه أدب الشوارع ، أو أدب الحياة اليومية لأبسط المواطنين .

لقد كانت سيمون دى بوفوار ابنة ذكية سعيدة ، لها شقيقة واحدة . ليس لها أشقاء من الرجال .. لها صديقة واحدة هى « زازا » .. أبوها محام مثقف مستنير . أمها متدينة متشبثة بأهداف ما تعتقده الفضيلة . وكانت سيمون دى بوفوار فتاة بسيطة . بل كانت ماسخة ، ليست أنثى تماما . وليست من هؤلاء الفتيات المسترجلات . وفى الخامسة عشرة وصلت سيمون

الى السن الحرجة . تنشد السعادة كأى فتــاة عادية . ولكنها كما تقول ــ لم تجد حولهــا سوى المــلل . فاشتد احساسها بالوحدة .

ورغم هــذا الاحســـاس المفــرط بالوحدة . أحست منــذ العاشرة بنعمة أخرى فى الحياة . نعمة اسمها الصداقة . متعة المشاركة فى شيء . فى هدف . فى حلم . حتى فى الوهم ..

وترسم سيمون دىبوفوار هذهالفترة بروعة دقيقة لاتستطيعها سوى امرأة حساسة شديدة الحساسية .

كانت تسير فى الشارع الى جوار أمها . وتصيح فى نفسها :

ــ هل يمكن أن تستمر الحياة كماتسير الآن . ملل وراء ملل .

واكتشفت سيمون دى بوفوار فى نفسها . وفى نفس كل انسان قدرة عبقرية على التمتع بالحياة .. واكتشفت نفس المعنى الذى تحدث عنه سارتر فيما بعد حين قال :

ــ علينا أن نعيش عصرنا ، مهما كان عظيما أو فظيعا ، لانه فى النهاية محسوب علينا .

واكتشفت سيمون دى بوفوار أن عليها أن تعيش حيــاتها . لانها محسوبة عليها ، ولانها ــ فى النهاية ــ لن تعيش ســواها ، واكتشفت مع هذا العطش العجيب الذى ينتاب فتــاة الخامسة عشرة للسعادة ، انها تســتطيع أن تصنع حياتها بنفســها ، أن تجرب أفكارها . أن تنسج حياتها كمــا تنسج أى امرأة صدارا من الصوف أو شالا من الحرير !

وسن الخامسة عشرة أروع الاعمار .

انه عمر البكاء من أجل البكاء .

وعمر الحديث اللذيذ فى سلام . مجرد الثرثرة البريئة .

وسن الاسرار الساذجة والهروب من النظرات الحادة .

انه سن الخجل والقلق والاضــطراب .. واستطاعت سيمون دى بوفوار أن تجعل من سنها ــ هذا ــ حقلا خصبا للافكار .

ولكنها كانت وحيدة .

عرفت لاول مرة طعم هــذه الكلمة .. طعمها المرير الكريه .

« لا أحد أرجع اليه ولا أحد أستند عليه . الدم يسرى فى عروقى . والانفاس تتردد فى صدرى ، ولكن .. كيف تواجه فتاة الخامسة عشرة العالم حين تكتشف وحدتها . »

أخذت سيمون تحلم .

فالخيال طائر غريب .. طوق نجاة للغرقى . مظلة للتائهين الحيارى .

وأخذت تحلم فى فتاة مثلها تسير فى غابة . تضع يدها فى يد حبيبها . وتلبس ثوبا من التوال الرقيق . ذراعاها عاريتان . مرسلة الشعر . وبدأت تلاحظ العشاق فى الطريق ، فتحس بالوحشة .

« يا لها من مشقة . أن نتقدم فى الحياة وحدنا . منفردين . لا أحد معنا

ويا لها من نعمة أن يضع أحد يده على كتفك . يدا معروفة معهودة . لا تكاد تحس بثقلها على كتفك . لا تترك كتفك . ولا تحس بثقلها . ولا تحس بالوحدة بعد ذلك . ويا لها من جملة رائعة : مخلوقان متحدان »

وتقول سيمون دى بوفوار ، انها كانت تصيح فى هذه الاحلام :

ـ ولكن أين هى هذه اليد الخفيفة اللازمة لها .

أين هو الرجل .؟

لا يوجد .

لم يظهر بعد .

« كل الذى أحسه انه سيظهر يوما . ولذلك ، على أن أستعد من الآن للحب . وعليه أن يفرض نفسه على . أن يخضعنى بذكائه وثقافته وسلطته .

وسأرتبط برجل يشبهنى . قرينى يكون أكثر كمالا منى ، ولكنه يشبهنى . وسيحفظ لى سيادتى .. »

ومع هذا الحماس للسعادة ، وهذا الحلم بالالتقاء مع شخص يذيب وحدتها ووحشتها ، تقدمت سيمون دى بوفوار فى السن ، فلم تعد تحس احساس المراهقة المعذبة ، بل بدأت تفكر فى الحياة . واكتشفت أن دواء الوحدة هو الحب ، ودواء الموت .... ماذا ؟

يا له من مرض ليس له علاج ؟ !

فالحياة كما يقول سارتر ، ماسخة الطعم ، ونحن نحيا ، ولم نستشر فى الحياة . وكأننا نتجرع الماء من غير عطش !

ونحن نطمع فى المستحيل ، ولا نحصل الا على الواقع .

ورغم أننا نعلم ذلك تماما ، فاننا نقبل على الحياة كأننا نعيش أبدا .

ولا نستطيع التنازل عن المطلق مع أننا نعيش العمر الذى ينتهى !

ومع اكتشاف الموت ، يحس الانسان انه جريح بجرح يتربص به . لا يندمل . لا يتوقف عن النزيف ، حتى يصرعه النزيف . والنزيف نفسه هو الحياة .

فماذا نفعل ؟

وكما اكتشفت سيمون دى بوفوار أن دواء الملل هو الحب . ودواء الوحدة هو المشاركة ، اكتشفت معينا لا ينضب من المتعة هو العمل .

العمل . الانطلاق . التحرر . المسئولية .

فالحل الوحيد للحياة ليس هو الاستسلام ليأسها المرير ، أو لتعاسنها التى تتربص بها . والحل ليس هو أن نحيل أنفسنا أو أجسامنا على الاستيداع ، أى على اللذة المغرقة . بل الحل ، بعد أن ننهض وأن نفيق ، وأن نصحو ونحن نتجرع الالم ، ونحن نبتلع آلامنا كما نتناول حبات الاسبرين .. واكتشفت سيمون دى بوفوار أن تقبل الموت فى شجاعة هو انهاء للموت ، احتجاج عليه . أن نختاره بشجاعة خير من أن نستسلم له كما تستسلم الماشية للسكين .

ومن هنا كان ايمانها بأن الحياة جديرة بأن تعاش . فكل انسان منا ليس رقما يضاف الى رقم . أنه جدير بالحياة . وهو نهاية فى حد ذاته . والانسان ليس انسانين . انه انسان واحد . وهو فرد مطلق — مع انه نسبى ، لانه يموت .

ومع هذا اللغز العادى ، ان الانسان يحيا ويموت ، تبدو « روعة » الحياة ومتعتها ، وكرامتها . فالانسان يستطيع أن ينهض من وحشته ومن قدره المتربص به ، ليعيش حياة فاضلة جديرة بأن تحمل هذا الاسم .

وبدأت سيمون دى بوفوار تكتشف أنها تستطيع أن تكتب هذه الاحساسات. العادية جدا . والرائعة جدا . وتستطيع أن تصبح أديبة لها كبرياء ، وامرأة ذات سيادة. فالاديب الملتزم ، كما يقول سارتر : هو الذى يحسب عليه صمته كما يحسب كلامه . ان صمته يشبهالصمت وسط الحوارالمسرحى لابد أن يكون بميزان . ولابد أن يكون له وزن . فليس صمته فراغا . وليس كلامه اغراقا فى الدعاية أو اغراقا فى التسلية . وقد غرق الادباء بين الدعاية السطحية أو التسلية التافهة . ولكنها ستجعل من أدبها حديثا صريحا تقول فيه كلمتها . لان الادب حرية . ولابد أن تدفع ثمن هذه الحرية .

ولكن كيف .. ؟

الطريق الوحيد هو أن تحافظ على سيادتها الفكرية . انتصنع أفكارها بنفسها . ولهذا سخرت سيمون دى بوفوار من حكمة الشعوب ، هذه الحكمة التى يتوارثها الجيل بعد الجيل ، فتصبح هذه الحكمة الموروثة ، لا الحكمة المكتسبة ، كسلا فكريا . فهذه الحكمة ـ صنعت ـ لتغرق الناس فى اليأس .

فى الامثال الفرنسية عديد من الامثال التى تشبه أمثالنا .. البعيد عن العين بعيد عن القلب . مثل يشجع على الخيانة ـ كما تقول : وما طار طير وارتفع الا كما طار وقع ! مثل يشجع على اليأس والاستسلام . ولكل جديد لذة . مثل يشجععلى الاوهام .. الى غير ذلك .

وهكذا تشن سيمون دى بوفوار حملتها الشديدة على الامثال الموروثة والحكم القديمة . فلا بد للانسان أن يصل الى حكمته بنفسه ، وأن يكسبها بعرق جبينه ! ..

ولا بد أن يكسب الانسان حياته ويعطيها وزنها الحقيقى ..

ولكن كيف ؟ ..

أما بالحب ؟ ..

وأما بالعمل ؟ ..

وحتى فى الحب ، لا بد أن ينشأ صراع بين الرجل والمرأة .

وتحكى سيمون دى بوفوار قصة هذا الصراع فى قصصها . امرأة ورجل . اختلاف . ثم افتراق ، ثم التقاء . ثم شكوك

والشك كما يقولون يحيى الغرام . نعم ! لا بد أن يتعذب الانسان وأن يشك ، وأن يعض . وأن يعود اليها : ليتأكد انه كان يحبها حقا . وهذا خير من أن يستسلم الانسان للوهم بأنه يحب ..

فالحب بهذا المعنى اكتساب . واثراء مشترك ..

وهى تقول على لسان أحد أبطالها :

ـ وكيف يكون الحب على هذه الارض ..

وتجيب على لسان احدى بطلاتها :

بالنضال معا !

فأشرف معنى فى هــــذه الحيـــاة ـ التى تنتهى حتما بالموت ويا للعجب ـ هو الحب والعمل .

وتجد فى صفحات سيمون دى بوفوار هذه القداسة التى تعطيها للحب . وهى هنا تتفق تماما مع سارتر فى أن العاطفة يمكن أن تكون أعظم شىء فى الحياة .

فهو يقول على لسان هيلدا فى مسرحية الله والشيطان : وهى تتفق معه تماما ..

تقول هيلدا ، وهى تخاطب جوتيز حبيبها :

ـ « حين تموت ، سأتمدد الى جوارك ، وسأبقى الى الابد ، دون أن أشرب أو آكل شيئا . وسوف يتحلل جسدك بين ذراعى . وسأحب جثتك ..

فليس هناك حب : مالم نحب كل شىء وأى شىء .. »

وتقول سيمون دى بوفوار للمؤلف فرانسيس جنسون انهـــا تتفق تماما مع سارتر فى هذه النظرة الى الحب . ولكنها من وجهة نظر المرأة ، تفضل أن يحفظ لها الحب ، قدرا من السيادة : فلا يصبح الحب حملا ثقيلا : أو استبدادا من الرجل .

وهى لذلك تعترف للرجل بأن يكون رجلا ، حاميا ، وضخما ، وقويا ، ولكن عليه أيضا أن يحفظ لها كرامتها ، وسيادتها .

وكأنها تقول كما كانت تقول فى صباها الغض :

ـ لا ترفع يدك عن كتفى . ولكن لا تجعل يدك ثقيلة . فاليد الثقيلة ترهق الناس ، حتى ولو كانوا عشاقا متيمين ! .

وقد كانت سيمون دى بوفوار حسنة الحظ . فقد دخلت باريس لاول مرة بعد الحرب فى سيارة جيب ، وكان الاطفال يغنون :

انتهى كل شيء .. ولن يعود ..

وكان البرد شديدا ينفذ فى العروق ، ويقرض العظـــام .. وكانت سيمون لا تملك غير حذاء له نعل من خشب ، ومعطف من فراء الارانب ، وكانت المواصلات معـدومة ، والطرق مشققة ، والبيوت محطمـة ، والفنـــادق مغلقة ، والفحم نادرا ، والاكل شحيحا ، الا ما يجود به الامريكان ..!

وقد ظهر وجه التاريخ للفرنسيين جميعا مشوها مخيفا . رغم ذلك فقد مسحت الفرحة كل خوف وازاحته ، وأصبح البعيد والقريب صديقا . « أن كثيرا من الاصدقاء مات .. وكثيرا من الذين ماتوا ، أصبحوا بموتهم أصدقاء » ..

ولم تعبأ سيمون دى بوفوار كثيرا بالثياب ، أو الاقامة ، أو المأكل . لقد كانت تذهب الى بعض المجتمعات ، فكانت ترى بعض نساء المجتمع يلبسن من بيت أزياء « روشاه » ، وكانت تحس انها بهذه الثياب المهلهلة « قايلة الادب » ، ولكنها كانت تدرك أن « البهدلة » التى أصابت باريس أفجع من هذه الثياب المهلهلة ، ولقد اكتشفت الطبقة البورجوازية الصغيرة ان كل ما آمنت به كان كذبا ، وأطياف وهم مريض .

ورغم روح التفاؤل ــ العليل ــ التى خرجوا بها ، فلقد تمزق كل شيء أمام عيونهم . وظهر كل شيء مخيفا مرعبا ، وخاصة وجه التاريخ ..

وحين أعلن جان بول سارتر الوجودية فى قصصه وتمثيلياته نزلت به اللعنات والاتهامات من كل جانب .

من اليمين واليسار ..

قالوا : ان الوجودية تافهة ، يائسة ، جائعة تأكل من نديها !

قالوا : انها فلسفة اليأس والهزيمة والشذوذ والقلق .

ولكن الشهرة جاءت الى جان بول سارتر أسرع مما تتوقع ، ومما توقعت سيمون دى بوفوار ، لقد انتشر اسمه كأنه مهدى منتظر ، أو رســـول راحة وسلام لتلك النفوس الممزقة ، وما أكثرها ..

وكان سارتر يحس أن الشهرة ــ فى حــــد ذاتها ــ ، وبهذه الصورة .. فضيحة !! ..

« فهو يعرف كيف ظـل بودلير ، الشاعر الرجيم ، يكتب ولا يقرأ غير عشرات معدودين من صحابه ونقاده ، وكيف ظل فرانز كافكا يكتب ولا يطبع ، ولا يطمع فى الخلود أو الذيوع . وكيف كتب ستندال العبقرى صاحب قصة « الاحمر والاسود » لنفســـه وبعض المقربين » ..

ولكن الشهرة حين تجىء لا تستأذن أحدا ..

وتفسر سيمون دى بوفوار ظاهرة رواج الوجودية بتعليل غريب، ملىء بالتواضع أو السخرية ! ..

تقول : ان باريس خرجت من الحرب منهكة القوى . لا تملك شيئا تصدره للعالم .. سوى الموضة والادب ..

وسرعان ما أخذت فرنسا تضخم رصيدها فى الادب والموضة حتى تعوض كل خسائرها لقد تحطم الاقتصاد ، وانهارت السمعة وأهينت الكرامة ، ولم يبق لفرنسا سوى هذا الرصيد !

بقية من ذوق رفيع ، وشعلة من ذكاء وفكر .

وقد كان سارتر محقا حين قال : « ان الثقـــافة هى الشىء الوحيد الذى يبقى للانسان حين يفقد كل شىء » ..

ولكن سارتر ، كما تحكى سيمون دى بوفوار ، وقد عرفته منذ أكثر من ثلاثين عاما ، كان يفضل الخلود على الذيوع ، وكان كثير الاخلاص للمعانى .

وكان شديد الاخلاص لعاطفة ــ المعارضة ــ التى ورثها منذ أيام الشباب ، وكان مستاء اقلقا ، وكان يحتقر الاحتيال ، وكان أقرب الى الزهد .. ولكنه لم يرض بأن يصبح مفكرا متأملا .

ولذلك كان سارتر يميل فوق تكريس حيـــاته للادب ، الى العمل .. والعمل السياسى بالذات وأثناء الحرب ، أنشأ سارتر فرقة للمقاومة ، سماها « الاشتراكية والحرية » ، وصادق كثيرا من رجال المقاومة ، فحظى بسمعة طيبة بينهم ، فيما عدا بعض المنشورات التى ظهرت فى جنوب فرنسا ، تضـــعه فى القـــائمة السوداء ، مع الكتاب المتعاونين مع الالمان ، وحين انتهت الحرب

ظهرت السماحة بين اليمين واليسار .. والصداقة بين مختلف التيارات والاتجاهات ! لا فرق بين المتحمسين للكاثوليكيين ، أو المؤمنين بالماركسية ، أو الباحثين عن فلسفة الوجود وتفسير الحياة ..

وبدأت باريس تسترد عافيتها ببطء ..

المعارض القديمة تعود . والاعمال الفنية المختلفة أيام الاحتلال تظهر . ووافد جديد الى باريس من الادباء الامريكيين ، وخاصة أدباء الزنوج ، يقيمون صباح مساء فى مقاهى « الفاور » ، و « الدى ماجو » .. وكأنهم اختاروا باريس منفى وملاذا وفى خلال المقاومة ، كانت بعض المجلات السرية . قد تخصصت فى السياسة أو الشعر ، والفلسفة ، ومنها مجلة « شعر ٤٤ » ومجلة «اسبرى » التى يحررها جونييه صاحب مدرسة التوفيق بين الماركسية والمسيحية .. « وتومبا » التى يحررها البير كامو . وكان جان بول سارتر يرضى عن هذه المجلات ، ولكنه لا يرضى عنها تماما .

وكان يقول انها لاتعبر تماما عن روح العصر بعد الحرب .

وبدأوا يفكرون فى اصدار مجلة شهرية أدبية .

وأخذوا يبحثون عن اسم للمجلة . فاقترح ميشيل ليريس : أحد الشعراء ، اسما غريبا ، لايخلو من وقاحة وتهجم على القراء . وكان ليريس فى ماضيه سورياليا يلعب بهذه الوقاحة المتعمدة ! ورفضت اللجنة هذا الاسم ، واستقرت على اسم « العصور الحديثة » . استلهاما من فيلم « العصور الحديثة » الذى ألفه ومثله وأخرجه شارلى شابلن .

وكانت الفكرة فكرة سارتر .

وتقدمت الاعوام ، وبدأ اليسار يصطدم بسارتر .. وبدأ اليمين يستاء من سارتر ، لانه يذكرهم بخطايا الهزيمة والخيانة وفجيعة المقاومة ، وبدأ هذا التفاؤل الاول يهتز ... وبدأت سيمون دى بوفوار لا تخفى حقيقتها بأندريه مالرو أعظم قصاصى فرنسا قبل سارتر ، لانه « يتصور نفسه أنه جوته وديستويفسكى معا » .

وكثيرا ماكانا يتشاجران ؛ لانه يستخف بكل مايستحدثه جان بول سارتر ، والبير كامو .

حتى لقد سئل اندريه مالرو ذات يوم فى احدى الندوات :

ــ ما رأيك فى أدب البير كامو .

فكاد ينفجر فى السائلين صائحا :

ــ بالله عليكم . شيئا من الجدية . اننا لا نتكلم فى مقهى أو ناد من نوادى الوجودية .

وفى البداية ارتبط سارتر بالبير كامو ، وكانا يعتقدان أن صداقة وطيدة لاتفرقها الايام تربطهما معا .

وأخذ البير كامو يحكى لسيمون دى بوفوار . يصارحها بمتاعبه الخاصة . ويقرأ لها صفحاتمن يوميانه . وتقول سيمون دى بوفوار أن كامو كان متوقدالحماس . وكان ساخرا ، تقطرسخريته المرارة . وكان مندفعا . وكان ساخنا . ولكن زملاءه فى الجريدة كانوا ينعون عليه أنه يتعالى عليهم . وكان يحس بمأساة غريبة . لان شهرته وصورته عند الجماهير لا تمثلان حقيقة .

لقد كانت له مأساة ما يخفيها عن الناس

لعلها ذلك الحماس لان يصبح « كل شىء » فى وقت واحد .

وتقول سيمون دى بوفوار : أن البير كامو كان شديد الحماس ، الى درجة أنه كان يجلس فى الثانية صباحا على الرصيف ، والجليد يغطى كل شبر من الارض . ثم يتحدث عن الحب ــ مثلا ــ بعاطفة مليئة بالشجو والشجن . ويظل يقلب هذا السؤال :

ــ هل يستمر الحب . وهل يحرق الحب من أحب ! وكيف يدوم متوقدا ؟

ويبدو أن سيمون دى بوفوار درست شخصية كامو فى قصتها (كل الرجال يموتون) .

وقد استوحت فيها ماقالهالشاعر جورج باتاى : « كيف يمكن أن نرضى بألا نكون كل شىء » .

وبطلتها فرانسواز ، يؤرقها سؤال وحيد :

ــ كيف تصبح فى حياتها كل شىء !

ولم تصب هذهالقصة نجاحا كبيرا . وتقول سيمون دى بوفوار . ان الفشل فى الادب يشبه حوادث السيارات .

لو حدث لك حادثة سيارة فالناس ينصحونك بأنتركب سيارة على الفور . حتى لاتتعقـــد وتخشى بعد ذلك ركوب السيـــارات طوال حياتك .

وكذلك الفشل فى الكتابة .

قد يصـيبك بالعقـدة التى لا نجاة منها الا بالكتابة ثانيـــة على الفور .

وقد فعلت سـيمون دى بوفوار ذلك فكتبت : « دماء الآخرين » ولكن كتابها « الجنس الآخر » هو الذى أصـــاب نجاحا مذهلا . وألقاها بين أحضان الشهرة ... وفى هذا الكتاب تكشف سيمون دى بوفوار عن رأيها فى حيـــاة المرأة وتقدم وجهة نظر جديدة ، تحررية ، لان الرجـل هو الذى يصنع القوانين . ويحكم المجتمع ، وليس معنى ذلك أنها لاتؤمن بوجود فوارق بين الرجـل والمرأة . ولكنها تؤمن أن معظم الفوارق ترجع الى الثقــافة والمجتمع واملاء الرجل وكبريائه المزيفة .

وقد فرقع هـذا الكتاب فى فرنسا ، ثم انتشر فى العالم ، ونعى عليها معظم الرجال الفرنســيين أنها تسخف وتسخر من الرجل الفرنسى وتتهمه بالاهتمـــام بالحب والحـديث عنه والتبجح بأنه : « فن فرنسى » لان الرجل الفرنسى لم يعد كما كان .

لقــد أصبح الرجـل الايطالى هو الذكر الحقيقى فى أوروبا ، أما الفرنسى فيملأ حياته بالحديث عن الحب ، ولا يحب !

والكتاب ملىء بالملاحظات الذكيـــة . والاتهـــامات الجريئة ، والمصــــارحات التى اقلقت البـير كامو ، فلم يخف عنها رأيه فى « وقاحتها » .

وجاء وافد جديد الى باريس هو القصـــاص « آرثر كوستلر » صاحب قصة « الظلام فى الظهيرة » . وكان كوستلر معجبا بزوجته الحسناء التى تنزل من عائلة عريقة أو تتمتع بجمال غير مألوف .

وكان كوستلر شـديد الكراهية لروسيا الى درجة الحساسية المرضية . وقد ألف كتـــابه : « اليوجى والقوميســـار » وكتابه :

« الظلام فى الظهيرة » وفيهما غمز جارح لروسيا ، لم تطق عليه سيمون دى بوفوار صبرا .

وقد كتب « ميرلو بونتى » فى مجلة « العصور الحديثة » مقالا طويلا يرد فيه على « اليوجى والقوميسار » بعنوان « اليوجى والبروليتاريا » . واتقدت معركة حامية دخل فيها أغلب المثقفين وتبادلوا الاتهامات الفظيعة ، ويبدو أن البير كامو كان لايرضى باتجاه سارتر الى التحالف مع اليسار .

وبدأت العلاقة تهتز ، حتى جاء كوستلر . فاشعل الخصام نارا . وتحكى سيمون دى بوفوار كيف جلسا مع سارتر وزوجته ، وأخذوا يتناقشون حتى الرابعة صباحا .. والشقاق يظهر بينهم حتى أصبح لا أمل فى الوفاق .

وفى الفجر جرا أذيالهما ومشيا على رصيف نهر السين ، يكادان يتهاويان من التعب والتشتت .. ولم تملك سيمون دى بوفوار نفسها فدار بينهما حديث عن قاع نهر السين ! ثم انخرطت سيمون فى البكاء ... ورأت بين دموعها دمعتين مكتومتين تنديان وجه سارتر فى الفجر .

لقد فقدا صديقا .

وأنهت مع ذلك الفجر تلك الفترة من حياتهما . حين كانا يؤمنان بأن من قاتل معهما صديق وكل من اختفى ومات ، أصبح بموته صديقا ..



« الانسان يتعود على كل شيء
.. حتى على الطاعون والارهاب
والحرب ... »

« اهرنبورج »



● ايليا اهرنبورج ●

الناس يتغيّرون

عصرنا .. عصر الحروب والثورات . وليس أحق من ايليا أهرنبورج - بين أدباء كثيرين بلقب كاتب العصر . لانه كاتب الثورة والحرب عن جدارة .

فقد كان أهرنبورج نسخة روسية من صديقيه مالرو الفرنسي وهيمنجواى الامريكي ، وقد صور مالرو الحرب والثورة فى رواياته الفرنسية ، كما صورهما هيمنجواى كذلك فى رواياته الامريكية . وليس صدفة أن يكون الكتاب الثلاثة - الروسى والفرنسى والامريكى - أصدقاء عاشوا خلال الحرب الاهلية الاسبانية وربطتهم زمالة فكرية ونضالية طويلة .

وكان أهرنبورج نسخة روسية من الكاتبين الفرنسى والامريكى. بل ترجمة روسية لروح العصر . لانه عاش ثورة روسيا ، وعاصر الحرب الاهلية الاسبانية ، وشهد تكوين الجبهة الشعبية اليسارية فى فرنسا ، وسجل سقوط باريس تحت دبابات النازية . وشهد عصر ستالين كاملا ، وشهد انهيار ستالين والستالينية ، وعاصر خروشوف وتصادم معه . وكان اهرنبورج فى كل هذه الحياة العاصفة صحفيا نشيطا يسجل أخطر أحداث العصر ، ولكنه كان أيضا شاعرا وأديبا . ولذلك كان لونا جديدا على الادب الروسى لانه يحمل ازمة الضمير الموزع بين القيم الاوربية والقيم السلافية .. وهو يجيد الكتابة والخطابة بالفرنسية ، وقد زامل وصادق مالرو وأندريه جيد وهيمنجواى وبيكاسو ، كما زامل وصادق ماياكوفسكى ويسينين وبلوك وتولستوى الصغير . وأفاد الفكر الاوربى والروسى معا لانه نقل روحا أوربية جديدة الى روسيا ، ونقل روحا روسية جديدة الى أوربا . وكان سفيرا «أدبيا» متنقلا للحضارتين وتستطيع أن تلمس ذلك فى كتبه ، فتجد النكهة الاوربية والروح السلافية فى مزيج ممتع ، فهو أقرب الى الاسلوب التحليلى الفرنسى ، والشاعرية السلافية أيضا .

وقد اختلف النقاد حول أهرنبورج :

- هل هو صحفى أو روائى ؟

وقال كثيرون :

- ان أغلب رواياته أقرب الى التحقيقات الصحفية المليئة بالوصف السريع والحركة المتنقلة . ولم يخف أهرنبورج حيرته فى نفسه .

وكتب يقول على لسان أشهر الصحفيين السوفيت فيما بعد الثورة ، وكان يزامله فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية .

ـ كثيرا ما قال لى هذا الصحفى الذائع الصيت أنه لا يخفى حسده للكتاب الروائيين الذين يكتبون الروايات عن الحرب الاهلية الاسبانية .

وكان الصحفى يقول لى :

ـ ماذا سيبقى من بعدى ؟

مجرد تحقيقات صحفية تافهة . مجرد أوهام زائلة !

ويقول أهرنبورج ان صديقه الصحفى الشهير لم يكن يخفى حسده لهيمنجواى الذى كان يكتب فى ذلك الحين قصته الرائعة عن الحرب الاهلية فى أسبانيا .

ويقول انه كان أيضا يحس بالمرارة . فلم يكن هذا الاحساس غريبا عنه ، وهو الذى أعطى كثيرا من الجهد والسنوات من عمره للصحافة .

ورغم ذلك ، فقد أصاب أهرنبورج شهرته فى داخل روسيا وخارجها كقصاص رائع سجل أحداث سقوط باريس . وأحداث الثورة الروسية ، وأحداث الحرب الاسبانية ، ولا ترجع هذه الشهرة الى موهبته وشاعريته وصدقه ، بل ترجع الى شخصيته وأخلاقياته أيضا .

فقد كان أهرنبورج كاتبا أخلاقيا .

وفى أثناء الثورات والحروب ، يحتاج القارىء الى الكاتب الاخلاقى بالذات ، المتمسك بمبادىءانسانية وثورية ، لا يحيد عنها

ودليل أخلاقيته انه كان لا يخفى ما يؤمن به أنه الحق ، وقد أدى ذلك به الى خوض معارك عديدة مع النقاد الرسميين للثورة. وقد كان من أوائل المدافعين عن ما ياكوفسكى شاعر الثورة الذى انتحر ، ومن المدافعين عن قراءة جيمس جويس وفرانز كافكا ، وكان النقاد الرسميون يكيلون لهما الاتهامات المتجمدة المتحجرة. وكان يقول عن كافكا أنه أول من تنبأ بأزمة النازية فى أوربا وكان النقاد يتبرأون من كافكا لانه أديب شديد التشاؤم ، بدعوى أن الاشتراكية دعوة الى التفاؤل والتقدم ! وكان أهرنبورح كذلك من

المدافعين القلائل عن باسترناك ، حتى حين عصفت به عاصفة الاستنكار الرسمية ، وكان من أوائل من تنبأوا بشهرة ايفتوشنكو وغيره من الشعراء الشبان المجددين . وهو صاحب النبوءة الكبرى بأفول نجم ستالين ، في قصته « ذوبان الجليد » ، حتى أصبح اسم تلك الروايةرمزا لمرحلة تاريخية في تاريخ روسيا السياسي والثقافي .

وأهرنبورج ، لا يخفى أنه أمضى عامين بعد الثورة ، وهو في أزمة ثقة ، لا هو يثق بالثورة ، ولا الثورة تثق به . ويحلل الكاتب ذلك بأنه كان يؤمن بالقيم الانسانية التي بشر بها القرن التاسع عشر . ويقصد بذلك الليبرالية والافكار التحررية والديموقراطية الكلاسيكية .

ولم تمنعه هذه الازمة من تأييد الثورة ، حتى أنه كتب أعظم كتبه ، وأكثرها عددا وحماسا في تأييد الثورة ثم أصبح كاتب « الوطنية السوفيتية » أثناء الاحتلال النازي لروسيا ، وفي مقالاته النارية روح وطنية سلافية ممزوجة بروح العصر ، ملتهبة أخاذة ، تلفحها روح كلاسيكية عميقة ، كتلك التي تهب في أعماق الوطني الصادق اذا داس العدو تراب وطنه .

يقول أهرنبورج في عام ١٩٤١ بعنوان « الامتحان » :

— «اننا لا نستطيع أن نرفع رءوسنا من الخريطة . ان نرى أوكرانيا قد احتلها العدو . وأن نرى الالمان يقتربون من موسكو ويقتربون من روستوف . لا نستطيع أن نخفي أن هذه الكلمات القليلة العدد تعبر عن عالم هائل من التعاسة ، عن مئات من المدن المهدمة ، وملايين من الذين سقطوا في العبودية . ولا بد أن ننقذ روسيا . ولسوف ننقذها » .

ومن أشهر مقالات أهرنبورج الصحفية تلك السلسلة الساخرة التي كتبها عن عقلية العدو ، بعنوان « فريتز » . ويحلل أهرنبورج عقلية « فريتز » النازي الالماني . تحت اسم « فريتز » الفيلسوف . « وفريتز » البيولوجي « وفريتز » النرجسي ..

وفي ليلة دخول الجيش السوفيتي الى برلين ، يكتب أهرنبورج مقالا عنوانه « ليلة الاقتحام » .

— « نريد أن نذهب الى عش الافاعي . لنذهب الى المانيا

حاملين السيف . حتى يسكت السيف الى الابد . نريد أن نذهب اليهم ، حتى لا يجيئوا الينا من جديد . سنذهب اليهم ، تصحبنا ظلال المعذبين الذين يصرخون فينا من بين جراحهم تذكروا شيئا واحداً .

العدالة .. »

وقد كتب أهرنبورج روايات عديدة منها روايتان هامتان ، هما « سقوط باريس » و « ذوبان الجليد » وقد ترجمتا الى العربية ، وتعتبر القصتان من اشهر أعماله. ولكن النقاد يعتقدون ان من بين أعماله الاولى عملا جديرا بالقراءة والاهتمام ، مع انه لم يصب غير قدر متواضع من الذيوع .

فقد كتب أولى رواياته عام ١٩٢٣ ، وهو لا يزال فى الثلاثين ، وتكشف هذه الرواية عن سخرية لاذعة تؤهله لان يكون جوجول جديدا . والرواية اسمها « مغامرات جوليو جورنيتو ومغامرات أتباعه » .

والرواية تحكى مغامرات أشبه بمغامرات دون كيشوت ، وبطلها جورنيتو وهو مكسيكى مثقف ثورى . لكنه يختلف عن الثوريين المعروفين ، ويختلف معهم كذلك .

ومن هنا كانت السخرية والفكاهة انه يحلم أن تكون ثورته اكبر ثورة فى العالم . وهو يحلم بأن يهدم أسس المدنية المعاصرة ، وأن يغير الاخلاق والعادات والقيم .

وهو ككل ثورى يبحث عن أتباع من مختلف الملل والنحل والنظم والامزجة

فيذهب الى أهرنبورج نفسه ، ليقنعه بمذهبه ، فينخرط أهرنبورج فى صفوف أتباعه ، ويكون أول الاتباع الذين يصبحون سبعة ، انتقاهم المؤلف من القارات المختلفة والحضارات المتضاربة .

فواحد منهم شاعر ضئيل الموهبة ، يجلس على المقهى يتندر ويتفلسف ويحاكم الآخرين ثم يبحث عن صديق يدفع عنه الحساب .

والتابع الثانى ، موسيقى أمريكى فاحش الثراء . والثالث

سنغالي أسود ، والرابع عدمي من أنصار العدمية « ومن غير العدمي يمثل الروح الروسية ! » والخامس ايطالى عاطل ، والسادس فرنسي بورجوازى يطيب له انتقاء ألذ الاطعمة وأعرق الانبذة ، والسابع المانى يؤمن بالنظام ، ويعجب بكارل ماركس والامبراطور غليوم الثانى فى نفس الوقت . وهو فوق ذلك خبير فى المطاعم العامة .

ويتقابل السبعة ويحاولون الترويج لمذهبهم ، فاذا قبض عليهم فى فرنسا تولى الفرنسي التوسط لهم لدى السلطات ، أو ترتيب وسائل الهرب . واذا قبض عليهم فى المانيا تولى الالمانى تلك المهمة ، وهكذا تدور أحداث الرواية الساخرة فى مغامرات فكاهية مليئة بالواقعية المرة ، حتى لاتدرى أيسخر صاحبنا من النظم العتيقة أم من الثورات العنيفة . ولكنك تخرج من الرواية ، فتؤمن بضرورة التغيير على أى حال .

ويروى اهرنبورج فى الجزء الرابع والاخير من ذكرياته بعنوان : « الليل يهبط » تلك الفترة الخطيرة فى حياة أوربا مابين عام ١٩٣٣ أى بعد نجاح هتلر ، حتى وصول هتلر الى أبواب موسكو ، وقد عاش اهرنبورج أغلب هذا الوقت فى باريس مراسلا لصحيفة أزفستيا .

وفى هذه الفترة الحرجة من تاريخ أوربا ، كانت مقدمات الحرب العالمية الثانية تظهر شبه مؤكدة للمثقفين اليساريين . على الرغم من معاهدات عدم الاعتداء التى عقدها ستالين مع هتلر .

وكانت باريس هى المسرح الذى تتصارع فيه القيادات اليمينية واليسارية على أعنف صورة .

« نظرت الى بعض الصور القديمة ، فوجدت أن وزنى قد زاد بصورة ضخمه . لقد تغيرت . ولكننى لم أصبح ساذجا . وكثيرا ماكنت أحلم بالمعارك . ولم تكن كل المعارك وهمية تصارع طواحين الهواء . كنت أصارع الجواسيس والشاعر بول فاليرى ، وأعارض السوريالية ، وكنت أرسل المقالات النارية الى أزفستيا ، وكنت مازلت أتمسك بهذا الشاعر الشاب الذى كنته فى قديم الزمان ، ولم أحس اننى لا أجيد فى الحقيقة سوى النثر ، وان عمرى قد أصبح الثانية والاربعين » .

وقد أثارت الوحشية النازية فى النفوس روحا غريبة من طلب الثأر .

جلست فى مطعم « أزهار الليلا » وهو مطعم فى نهاية شارع المرصد

الفلكى بباريس ، وكان يتردد عليه هيمنجواى : ومن قبله كان لينين قد اختاره مكانا مفضلا .

وقال لى الكونت كارولى ، أول رئيس وزارة ثورى للمجر ، وكان رجلا طيب القلب للغاية :

ـ اننى أحلم بأن أصحو ذات صباح بهيج ، فاخرج الى الفراندة ، واتناول قهوتى ، وأجد فوق كل شجرة نازيا مشنوقا .. !

وكنت أسمعه صامتا .

وفى أحد الاجتمـــاعات العامة البارسية ، لمعارضة الفاشية ، ذهبت لاسمع اندريه جيد واندريه مالرو ، وفايان كوتورييه . وكان اندريه جيد يشبه قسيسا من قساوسة الكاتب المسرحى ابسن . وكان يفرط فى شرب الماء . وكان العمال الذين يحضرون الاجتماع لايقرأون من كتبه شيئا ، ولكنهم يعلمون أنه كاتب شهير وأديب كبير . وكان مالرو هائج النظرات ، يقـــول صـــارخا وسط عاصفة من التصفيق :

ـ لو اندلعت الحرب فسنقف فى صف روسيا !

وقد يبدو غريبا الآن ، كما يقول اهرنبورج فى مذكراته : ان الناس يتغيرون . وان الزمن يغيرهم ببساطة !

ففى عام ١٩٣٣ ، كان الشاعر بول ايلوار نصير السوريالية . ولم يكن أحد يستطيع ان يتنبأ حينئذ بأنه سيصبح شاعر المقاومة بعد احتلال فرنسا !

وهذا مالرو يصبح وزيرا .
وهذا جوليوت كورى ، العالم الذرى الفرنسى . الذى كان أصدقاؤه يتهمونه بأنه لا يدرك خطورة الفاشية تماما . يصبح عدو الفاشية « رقم ١ » فى فرنسا وأوروبا والعالم !

ويقول اهرنبورج :

ـ ليس من عادتى أن أسود صفحات أصـــدقائى القدامى . فقـــد عرفت مالرو ، وزاملته ، وصادقته أكثر من ثمانية أعوام .

وقد تعرف به فى الحرب الاسبانية . وكان مالرو ـ فى الثلاثينات ـ يعد أشهر وأخطر قصاص فرنسى بل وأوربى . وكان مالرو يظهر

دائما فى أوساط اليساريين واجتماعاتهم وقراراتهم . وكان اليساريون فى ذلك الوقت يعدون المؤتمرات « للدفاع عن الثقافة » ، و « الدفاع عن السلام » لانهم كانوا يحسون بأن الحرب قادمة ، وان النازية تخفى الحرب تحت عباءتها .

ويكتب اهرنبورج فى مذكراته هذه السطور :

« طالما تساءلت ماسر أحزان فرنسا ؟ ان حزنها يكشف جمالها . فعلى شواطىء المحيط ينسج الصيادون شباكهم الناعمة الزرقاء . والابقار السوداء تغوص فى الحشائش الخضراء كالطفولة . والمنازل البيضاء الصغيرة التى يسكنها الفلاحون . ولكن ما أقصر العمر . هذه هى أغنية شاب خجول أسمعها من نافذتى . الشاب أضخم من مقاس بدلتـه . لقد أتى هذا الشاب متأخرا الى هذه الدنيا . فكل شىء قد تم . وكل الاماكن احتلت والشيوخ استولوا على المقاعد كلها . وكل الروايات قد كتبت . ولا يستطيع هذا الشاب ، أن يغنى غير أغنية واحدة :

ـ ما أقصر العمر ! ..

ويرسم اهرنبورج صورة صادقة للحرب الاهلية . بلادموع ، ولا آهات . ولا أناشيد . فيقول : « الانسان يتعود على كل شىء . حتى على الطاعون . والارهاب . والحرب . وقد تعود سكان مدريد على القنابل والبرد والجوع ، وتعودوا أن الفاشست على مقربة من كازا ولكامبا .. أى على بعد كيلو مترين من الاحيـاء الشعبية الآهلة بالسكان .

وكانت الطرق السبعة التى توصل الى مدريد قد سقطت فى يد الاعداء . ولم يبق غير طريق واحد مفتوح بين مدريد وفالنس .

وكنت اسكن فى فندق بالاس الذى تحول فيما بعد الى مستشفى .

ولم تكن البيوت تعرف الدفء وكان الطعام نادرا . وتعودت أن أعود الى أحلامى القديمة ـ وأنا نائم ـ كما كنت أحلم فى موسكو فى عام ١٩٢٠ بعد الثورة .

قطعة لحم تلوح لى فى الحلم !

وجاء صديق يصيح :

ـ هيمنجواى وصل المدينة .

نسيت قطعة الجامبون التي أنفقت اسبوعا للحصول عليها . وذهبت الى لقائه .

ويقول اهرنبورج أن همينجواى علمه الكثير فى الفن والحياة .

وكان أحد الاصدقاء قد قرأ له رواية لمؤلف مجهول - حينذاك - اسمها « الشمس تشرق أيضا » . وقال له : ان هذه الرواية ستكشف لك أعماق اسبانيا .

وقرأ اهرنبورج كتاب هيمنجواى . ثم اشترى كتابه « وداعا للسلاح » « وكثيرا ماكنت أنظر الى هذا الرجل القوى ، الهادىء ، وهو يجلس الى مائدته يجرع الويسكى . وسألته ماذا يعمل فى مدريد . وقال انه يراسل احدى وكالات الانباء . وكان همينجواى يتحدث بالاسبانية وكنت أحدثه بالفرنسية » .

وشكا هيمنجواى أن النقاد يعيبون عليه أنه يكتب رواياته بأسلوب البرقيات الصحفية .

فضحك اهرنبورج ، وقال :

- انهم ينعون على نفس العيب .

وقال هيمنجواى :

- خسارة انك لاتحب الويسكى مثلى . ان الويسكى وقود الرجال .

وكان همينجواى يسكن فى فندق بالقرب من مركز التلغراف . ليس بعيدا عن مرمى نيران العدو . وكان بالطبع هو النزيل الوحيد فى الفندق ! .

وكان همينجواى يستطيع أن يعيش مرفها فى هدوء فى بيته الصغير الذى يملكه فى فلوريدا . ولكنه فضل الحياة فى الخطر والجوع والحرب

ويقول اهرنبورج : لو ان غريبا رأى هيمنجواى لظنه بوهيميا رومانتيكيا . شارب خمر . ماجنا . قناص وحوش . أو صياد حيتان . والحق ان هيمنجواى كان يعمل بلا كلل . وكان هميجواى يقول له لابد من العمل حتى لاتستسلم للملل . « ولو لاحت لى صفحة مما كتبته باهتة . أمزقها على الفور وأعيد كتابتها خمس مرات أو عشرا » .

وذات يوم ، قال له هيمنجواى :

ـ ان الإشكال تتطور بلا شك . ولكن الموضوعات .. !

ان موضوعات أي كاتب في العالم لاتتغير . وتستطيع أن تعدها على أصابع يدك . انها الحب والموت والعمل والقتال . وكل شيء يدخل تحت هذه المواضيع . الحرب طبعا . حتى البحر كذلك ينطوى تحت هذه الموضوعات .. »

وفى احد المقاهى التى نجت بأعجوبة بين منزلين تهدما تماما . أخذ هيمنجواى يقول له :

ان الكاتب لايستطيع أن يكتب كل شيء . ولو أراد ذلك . لاضطر الى التلفيق والسطحية . ولذلك فعليه أن يختار الدقائق الصغيرة ، التى تركز وتلخص الافكار العامة والهامة .

وكان هيمنجواى شديد التمسك بالحياة . يتحدث ساعات طويلة عن سمكة ضخمة نادرة تعبر فلوريدا ، أو عن مصارعة ثيران . وبينما كان يحدثه عن الصيد : توقف فجأة ليقول :

ـ « على أى حال فالحياة لها مغزى .. ومغزاها هو كرامة الانسان . »

ليلة أمس ، قتل شاب امريكى بالقرب من المدينة الجامعية . كان قد جاء الى فندقى مرتين . وتحدثنا فى كل شيء وأى شيء . كنت أود ان أقدمه اليك . كانت له جملة مفضلة « ليس أقذر من الحرب . ولكننى فى الحرب أفهم لماذا ولدت . فلابد من اقصاء الفاشست عن مدريد » .

وبعد صمت : قال هيمنجواى ؛ لصديقه اهرنبورج :

أترى كيف تتطور الامور .

نتمنى أن تقول وداعا للسلاح ، ولكنك لاتملك الا أن تقبض على السلاح ... لتقاتل ..

نعم ! .

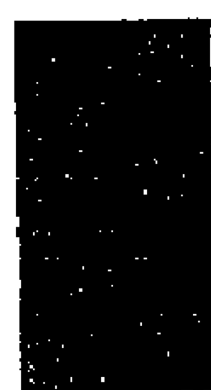
فقد صدق هيمنجواى ، وصدق اهرنبورج .

ليس أقذر وأفظع من الحرب ؛ لكنها قد تكون السبيل الوحيد ليعرف الانسان لماذا ولد ولماذا لابد للحياة من الكرامة .



احراق ، واحتـراق . . .
تلك كانت حيـــــــاتي

نيتشه



العدميون

أنفاسنا عندما قررت الجماعة اطلاق النار على القيصر .

انجبست

كنا بين الفصلين الثـاني والثـالث من مسرحية : « العادلون » التى كتبها البير كامو . وعرضت فى مسرح ايبرتو بباريس .

كنا نتساءل :

ـ هل ينجح كاليايف فى مهمته ؟

وكاليايف هو اسم البطل فى الرواية التمثيليـة وفى الحقيقة أيضا . .

قد تنبه البير كامو الى تلك الشخصيـات الثائرة التى ملأت تاريخ روسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ، والتقط منها شـخصية كاليايف ، فصـورها فى روايته « العادلون » ، واحتفظ لها بنفس الاسم بعد أن مر مايقرب من ثمـانين عاما بين الحادثة والحقيقة والرواية التمثيلية .

وكاليايف يسمى فى الشلة بالشاعر .

وهو شاب له جبهـة عالية ، وعينان لامعتان : أغلب الظن انهما كانتا تلمعان بشدة فيما مضى ، ثم أحاطت بهما خيوط دقيقة رسمها العناء الشديد وهموم التفكير واستبداد الفكرة الثابتة . .

يقول كاليايف لصحابه أنه انضم اليهم لقتـل القيصر « لا لاننى مللت الحيـاة . . ليس اليأس هو الذى دفعنى اليكم . . بل انه حب الحياة » .

وقد رأينا كاليايف يتناقش وينتظر ويتوقف ويخطو . . كل ذلك بسرعة . . وكأنه لايعرف مكان خطـواته . . . ولكنه كلما أحس بدوار فى رأسه وضع يده دائما على قلبه . . الذى يقوده .

يقوده الى أين ؟

الى المقصلة حتما .

انه يكره الظالم ، ويرى الحياة معه مستحيلة .

ولكنه يصيح فجأة فى رفاقه :

ـ هل انا قاتل الغ فى الدماء . . أم انا وطنى أحقق مثلى الأعلى ؟

واذا بالجواب يسدده فى صدر صديقه وزعيمه استيبان :

استيبان يقول : انه لاوقت لهم لمثل هذه التفاصيل : للبحث فيما اذ اكان زميلهم قاتلا ووطنيا .. أم انه قاتل فقط .

ثم يقول له :

ان العدل عنده فوق الحياة ، والمبدأ فوق الفرد : فوق القتيل والقاتل .. فوق القيصر والثائر .

ويخرج كالياييف لينتظر عربة القيصر عندما تمر ...

وتطل عليه حفنة من رفاقه ينتظرون آللحظة الفاصلة .. وصوت الانفجار .

وكنا معهم ننتظر ، والستارة مسدلة بين الفصلين الثانى والثالث من المسرحية ، هذه اللحظة الحرجة ، ونتساءل :

ـ هل سيقتله ؟

ورفع الستار ، وعاد الينا كالياييف فاشلا .

خانته ذراعه ، فلم يستطع تسديد رصاصاته : فقد تحققت مخاوفه ، ووجد حفيدى القيصر الصغيرين بركبان فى نفس العربة التى تقل عدوه ...

فياالحظ !

ويلقى كالياييف من رفاقه ثورة وغضبا ، ولا أحد يفهم مأساته غير حبيبته دورا التى تدرك تلك الطاحونة التى تطحن جسده وروحه ...

انها فتاة أحبت العدل ، وأحبت لتفهم . وأحبت الثورة لانها هويت كالياييف : أحبت العدل عن طريق الرجل .
ولكن دورا لها مأساة أيضا ...

فقد دخلت الثورة من باب الحب . ولكنها اكتشفت أن غرام الشباب يحنى الهامات ، ويحرف النظر ، ويذيب الارادة . والذين يتفرغون للمثل الاعلى يمتصهم .

ينظرون الىالمستقبل ويشقون حجابه ويرفعونرؤوسهم وتصبح قلوبهم فى عيونهم التى لايرتعش لها جفن : لانها دائما ثابتة على هدف واحد .. هو الثورة !

ولذلك عاش حبها تحت الارض .

ينطق بمأساتها لونها الشاحب الجميل ، وغيام بريق الانوثة فى عينيها . وخطوط جسمها التى تكسرت بعد استدارة ، والضنى الذى يجرح صوتها فلا تسمع منها غير بحة الشفاعة ..

بل تشير اليها خطواتها : وكأنها تخطو عارية القدمين فى حديقة من الشوك ، لم يبق منها غير رائحة عاطرة نفاذة .

وهذا الحب هوالذى يجعل دورا تدرك مشقة كاليايف ، وتدرك لماذا تهتز ذراعه وترتجف .

اذ كيف يحقق العدل بذراعه وحده ؟
ان ذراعه التى امسكت قنبلته ارتجفت وكأنها تمسك بميزان العدالة ! .

وقد صور لنا البير كامو هذه العواصف والرعود التى تهز قلوب العدميين .

فكنا نسمع صوت الانفجارات من القنابل التى يلقيها الثوار على ضحاياهم وأعدائهم .. وكنا نسمع أيضا صوت الانفجارات تدوى داخل قلوبهم ، فتقطع شرايينها وتمزق أوصالها . ولهذه الانفجارات قصة طويلة دامية ، هى : قصة النهيلزم .

من رصاصات النهيلست رصاصة أطلقتها فتاة اسمها فيراسولتش وكان ذلك فى : ٢٤ يناير ١٨٧٨ .

وفيراسولتش فى السابعة عشرة ، قضت عامين فى السجن لانها اتهمت بتهريب بعض الرسائل الى أحد المسجونين بينما كانت تزوره ..

وقررت أخيرا ان تقتل رئيس بوليس بطرسبورج وكان اسمه تريبوف . وكان هذا الجنرال ظل القيصر نيقولا . بل كان أكثر قيصرية منه .

وذهبت اليه فيرا تتظاهر انها تقدم اليه التماسا ، فلم يكديستلم الورقة التى تحملها حتى كانت رصاصاتها تنفذ الى صدره .

ولكن الجنرال لم يمت واصيب بجراح

وعرضت القضية على المحكمة فبرأها قضاتها ، بعد أن كشفت

لهم عن العـذاب الذى تعذبتـه فى السجن . والعذاب الذى يلقـاه المسجونون جميعا بأوامر من الجنرال المصاب . وقابل الناس حكم البراءة بارتياح ، وقابله القيصر بغضب شديد .

وأخـذت العزة نفس القيصر ، فزار جنراله فى المستشفى ، ثم رقاه وعينه مستشـارا خاصا ، وطرد المحلفين الذين تأثروا بدفاع الفتاة ، بل وألغى نظام المحلفين بأكمله .

ومنذ ذلك التحـــدى بين القيصر والنهيلست . وجاء جنرال آخر اسمه فيتسوف ، وكان اســمه قد ذكر فى احـدى القضايا الشائنة اذ اشترك فى تزوير بعض الاوراق .

وأحس الجنرال ان اسمه قد يتلوث بالفضيحة ، اذ ان الشهود بدأوا يتجمعون للادلاء بشهادتهم ضده . فقرر أن يقتلهم شاهدا بعد شاهد . وأخذ يرسل اليهم رسله الذين يقتلونهم أو يلفقون لهم التهم . حتى يلقيهم فى السجون ويتركهم جوعى فيموتوا ! . .

وكان الجنرال يذيع أن القيصر أمر بنفسه أن يقتل هذا المتهم جوعا وذلك بالرصاص .

وقررت جماعة النهيلست التخلص من الجنرال ، فقتله شابان . . بالرصاص .

وانضم الى الجماعة رجل تخصص فى التمويه على البوليس ، وأطلق عليه اسم الحارس ، واسمه « اسكندر ميشلوف » اشتهر بشدة يقظته ودهائه .

كان يبنى الحجرات التى يجتمع فيها العدميون ، بين كل طابق وطابق ، حتى لا يفطن البوليس عند التفتيش الى هـذه المخابىء السرية .

وكان ميشلوف خبيرا فى اصطياد شخصيات لا يحوم حولهـا الشك ، وتمكن من ضم عدة شخصيات فى القصر والجيش .

حتى أن بعض أصول وبروفات مجلة « الارض والحرية » كان يحملها ابن أحد كبار قواد الجيش القيصرى ، وكان هـو يشغل منصبا حكوميا خطيرا . .

وقد تمكن هذا الرجل أن يلقى الرعب فى مفـاصل القيصر ،

فكان يجد بين صباح وآخر نسخا من جريدة العدميين التى تهدده بالقتل والدمار على مكتبه .

وتجمعت فى هذه الجماعة عناصر مضطهدة ، وعناصر تميل الى الثأر ، متعطشة الى الدم .. واتجهت فى النهاية الى القيصر نفسه ..

وحاول النهيلست قتله عدة مرات .

فحاولوا نسف القطار الامبراطورى .. الذى يقله . ووضعوا ثلاثة ألغام فى ثلاثة مواقع من طريقه الى موسكو : اثنان فى المحطات الفرعية ، وثالث فى محطة موسكو .. ولكن المحاولة فشلت لان بارود اللغمين الاولين كان فاسدا ، ولم ينفجر غير اللغم الثالث الذى وضع بالقرب من محطة موسكو . ولكنه لم يصب عربة القيصر ، بل أصاب عربة ملحقة بديوانه كانت معبأة بالحقائب والحاجات !

وقدم عشرات من الشبان للمحاكمة فى هذه المحاولة الجريئة !

ولم تكد تعقد المحاكمة ، حتى تسلم القيصر خطابا يطلب فيه مرسلوه أن يتنازل عن حقوقه الاستبدادية ، وأن يعدل الدستور ، والا قتل !.

ومضى أسبوعان ، وحدثت المحاولة الثانية لاغتياله ..

وكانت فى هذه المرة داخل القصر . فقد تمكن النهيلست من ضم نجار يشتغل هناك . وكان النجار يقيم فى القصر فى البناية المخصصة للخدم والعمال .

وقد أمكنه أن يهرب الى القصر بعض الديناميت ، وأن يخفيه عن أعين البوليس والرقباء ، الذين كانوا يفتشون كل مكان فى القصر .. ولا يدعون شبرا دون تنقيب .

ولكن النجار أمكنه أن يخبىء ديناميته شهرا كاملا ، وإن كان هذا لم ينقذه من صداع أليم أصاب رأسه بالدوار . ذلك لانه كان يخبىء الديناميت فى « المخدة » التى ينام عليها . وكانت رائحة الديناميت تصل الى أنفه كل ليلة فيقوم ورأسه يكاد ينفجر .

وكانت أمام النجار النهيلست الفرصة المنتظرة ، حين دعا القيصر أمير بلغاريا الى حفلة عشاء . فوضع النجار الديناميت

تحت قاعة الشتاء التى يستقبل فيها القيصر ضيوفه حين يقيم المآدب .

وانفجر الديناميت ساعة الاحتفال ، ونسفت القاعة ، وقتل بعض الجنود والضباط . ولكن القيصر نجا وضيوفه .

وأعلنت الجماعة بيانا تأسف فيه لقتل الجنود .. وكررت مطالبتها للقيصر بالموافقة على انشاء مجلس نيابى يختار أعضاؤه بالانتخاب .

ولكن القيصر كان يخشى أن يفتح باب الاصلاح . ولو قليلا فلا يستطيع اغلاقه بعد ذلك .. ولذلك خاطر ورفض ، وأمر بنقل كل من يشتبه فيه من الشبان والشيوخ .. الى سيبريا .

وتمكن البوليس فى خلال أيام قليلة من أن ينقل اثنى عشر ألفا من المشتبه فيهم الى السجون .. ومثلهم الى سيبريا .

ووصل التحدى أقصاه !

فعقد العدميون مؤتمرا عاما سريا ضم جميع أعضاء الخلايا السرية من جبال الاورال الى بطاح سيبريا ..

واختاروا سبعة وأربعين عضوا لقتل القيصر .

ونجح واحد من السبعة والاربعين متطوعا ، اذ ألقى جونفزكى قنبلة على القيصر مزقته أشلاء ... فى ١٣ مارس ١٨٨١

ولكن ..

« مات القيصر عاش القيصر » .

فقد جاء اسكندر الثالث خلفا للقيصر المغتال .

فوجه اليه العدميون نداء يطالبون فيه بالعفو عن المسجونين عفوا شاملا ، واباحة الحريات ، وانتخاب جمعية عمومية .

وتردد القيصر . فجاءه انذار بأنه سيقتل فى حفل تتويجه على عرش القياصرة .

وأجل القيصر الجديد حفلة تتويجه عاما كاملا ، حتى يطهر روسيا من أدران العدميين .. وأخذت المحاكمات تتوالى ،

والمسجونون يكدسون فى السجون ، وسيبريا تبتلع الآلاف . وعشرات الآلاف ..

وبلغ عدد السنين التى حكم بها على المشبوهين رقما يفوق الخيال ، وانتقلت الاخبار الى خارج روسيا ، فأمر القيصر أن يلقى بالمتهمين الى السجن سرا دون قضاة ودون محاكمات .

وأظلمت روسيا !

ولم يعد الاستبداد ظالما بل أصبح مجنونا ، ولم تعد الحرية عدلا بل أصبحت جنونا أيضا .. واشتعل الجنون فى كل جانب .

فأحرق النهيلست العاصمة عن آخرها .

وكان على رأس النهيلست رجل دموى اسمه نيتشائيف .

وكان نيتشائيف يريد أن يقود الجماهير حتى ولو لم تبال ، وأن يسوقها الى الحرية التى يتصورها على الرغم منها .

وقد أثار نيتشائيف الرعب حتى فى قلوب المطالبين بالاصلاح وبالثورة الاجتماعية .

ودفعه التلذذ من الانتقام الى اتهام طالب انتمى الى جماعته ، لكنه تخلف فى وسط الطريق لانه لم يرض عن أساليب الجماعة الدموية . فأقام نيتشائيف له محاكمة ، وحكم باعدامه ونفذ فيه حكمه .

واستفحل خطر نيتشائيف ، مما جعل باكونين الفوضوى يتبرأ منه ، ومما جعل كارل ماركس الاشتراكى يصدر بيانا يعلن فيه أن نيتشائيف يحاول أن يلوث سمعة الاشتراكية ، ويدعى أنه يريد ما يريدون .

وبالفعل صدر بيان من الدولية الاولى ، يصف نيتشائيف بأنه سكير ونصاب وأفاق وسارق .. وعطشان الى الدماء ..

ورد نيتشائيف على هذا البيان ، بمحاولة قتل سكرتير فرع الدولية الاشتراكية — التى يتزعمها ماركس — بينما كان يعد ذلك البيان للطبع فى موسكو .

وكان نيتشائيف يؤمن بأن العين بالعين والاستبداد بالارهاب .

وكان يقول :

ـ ان الثورى فرد متميز ، ليست له مصلحة ولا عمل ، بل وليس له اسم . كل شيء ذاب فيه ما عدا مصلحة وحيدة ، وفكرة واحدة ، وعاطفة فريدة هي : الثورة .

الثورة على كل شيء ..

الوطن يسخطون عليه ، ويلعنونه صباح مساء .

ويعبر الكاتب ـ المجهول ـ نيتشرين عن هذه النقمة ، ويدعو على بلاده بالخراب ، كما تدعو أم على ابنها العاق بالموت .

يقول هذا الكاتب :

ـ « أى لذة أن تكره وطنك . وأن تنتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي تتهدم فيها كل أعمدته » .

والعلم .. يكرهونه ويحتقرونه لانه قصر فى روسيا على الذوات والارستقراطية .

والفن يدوسون أزهاره بأقدامهم !

ويقول كاتب العدميين بيساريف :

ـ ما هو الفن اذا كانت الجماهير لا تتمتع بمباهجه .

وما هو العلم اذا كان العلم لا يتصل بالجمهور .

والكنيسة .. يثورون عليها لانها سلطة دينية والدولة يحاربونها لانها سلطة زمنية ، وهم ضد كل سلطة مهما كان نوعها .. فى الارض أو فى السماء .

وهكذا كانت العدمية تريد أن تقطع كل ما يتصل بك « بمقص » .. أن تنفض عواطفك العائلية ، وأن تنكر الله وأن تتهم المدنية بالكذب ، والتاريخ بالظلم ، والاخلاق بالنفاق .

وأن يبدأ الانسان من الفراغ لا من التاريخ . وأن يصبح رجلا بلا ظل .. حياته بلا ماض مجيد أو شائق .. وبلا مستقبل فلعنة الله على الامل .

« فلماذا لا نحرر الانسان من كل ما يصم فكره بالخجل ،

وتحرره من كل مايمنعه من التنفيس عن حريتـــه .. حتى يتطور في جميع الاتجاهات » .

وكاتبهم بيســـاريف يدافع عما سماه باســتقلال الشخصية الكامل وحريتها المليئة .

« فبدلا من الاحساس بالالتزام ، لماذا لا تكون للانســان ارادة حرة ورغبة طليقة وعاطفة جامحة » .

وهو يقول :

ـ انني لا أنظر الى أهــــداف ولا الى مثاليات .. انما الذي يعنيني هو الحركة .

وهو يرى الكمال في أن يتطور الانسان وحده دون اعتماد على أحد وبشكل طبيعي ودون صنعة .

ولكن ما هو منبع هذه العدمية !

هل هو الدين !.

هل هي فكرة رفض كل شيء في العــالم لانه شر بالطبيعة ، ولان الارض كلها شرور وآثام ..

يعتقد الباحث الفيلســــوف نيقولا بيردائيف أن العدمية تعود الى الارثوذكسية .. لأنها تعتمــد على فكرة نفي كل شر ، فالارض تسبح في الآثام ... وان كانت قد اتخذت شكلا ميالا جانحا جامحا .. في العدمية .

ويرى أن العدمية تربت كالطفل اللقيط الذي ترك على عتبة الكنائس وفي أفنية الاديرة .

ويلحظ الفيلسوف ان أكثر المفكرين النهيلست في روسيا كانوا من أبناء القساوسة ، بل وكانوا من أبناء رجال احتلوا مكانات كبيرة في الكنيسة ، ودرسوا اللاهوت وتربوا في رعاية الدين .

ومن هؤلاء : دوبرليوبوف ، وتشرنشفسكي .

ودوبرليوبوف ترك « يوميـــات » يصف فيها طفولته وصباه . ويقول فيها ان التعليم الديني قوى عنــده روح التصوف . وكانت فكرة الاثم تراوده ، وتكاد تهجم عليه من كل منفذ ، وتحاصره .

كانت أقل الاخطاء التى يقع فيها تعذبه وتؤرقه ليالى طويلة .

كان لايغفر لنفســـه ــ كما يقول ــ انه « أكل كثـيرا من المربة أو أنه نام كثيرا » .

ويقص فى يومياته كيف كان يحب أباه وامه ، ففقد أمه فجأة . . وانتقل الى الريف ، فهلعت نفسه للمظالم والقسوة وعذاب الحياة .

وقد تحول الى رجال الدين ــ ومنهم أبوه فوجـــدهم يعيشـــون فى حالة أبعد ماتكون عن الدين .. يعيشــون فى ظلمات الشيطان ، ويستغلون الجهل والمخاوف .

ويكتب فى يومياته : انه قرر ان يرفض كل شىء ، وان يعيش فى انكار ذات ، وصيام ، وانه يتمنى لو تغير وجه العالم الذى رآه حتى ولو أصبح خرابا ..

ويموت دوبريولوف وهو لايزال شابا ..

ويأتى بعده مفكر آخر اسمه « تشرنشفسكى » ، يستمر فى الطريق الذى لم يتمه دوبرليوبوف .

وهو أيضا ابن قسيس ، يشغل منصب « أسقف » ويدرس الفتى التاريخ واللاهوت ، ويطلع على هيجل والعلوم الاقتصادية .. وفى النهاية يضيع بين المفكرين .

ويقبض عليه ذات يوم ، ويتهـم بأنه كتب منشـــورا ووزعه على الفلاحين فيحكم عليه بالسجن ست سنوات ؛ يقضى بعدها اثنى عشر عاما فى سيبريا .

ويكتب «تشرنشفسكى» قصة خيالية عنوانها : «ماذا نعمل ؟»

وهى قصـــــة مليئة بالاضطراب ، فهو يصف بطله الشاب الذى ينام على المسامير ليدرب روحه على الصبر ، ولكنه فى نفس الوقت لايرهق جسده بالصبر ، بل يطلق له العنان فى مغامرات عديدة . ويدافع الكاتب عن الحب الحر من كل قيد ، ويقول انه انما يطالب بالعودة الى الطبيعة !

والشخصية الثالثة بين كتاب « النهيلزم » هو بيساريف ، وهو أشهرهم ، ولعل ذلك لانه كتب بعض الكتابات الاجتماعيـــة وخلط آراءه العدمية برأيه فى التخلص من القيصرية والظلم الاجتمـاعى .

وبيساريف ابن أحـــد النبلاء . وقد سجن اربعة اعوام سجنا انفراديا . وكتب أغلب كتاباته فى زنزانته .

ودعا الى تحرير الانســـان من كل العقائد والروابط العائلية والاخلاق التقليـــدية . والى خلق نوع جديد من الانسان سماه : « المفكر الواقعى » .. قال عنه انه رجـــل آخر غير ذلك الرجـل الارستقراطى الذى تعرفه روسيا ، رجل يؤمن بالعمل . ولا يؤمن بغير العلوم الاجتماعية .

وفى هـذا الوقت كانت العلوم الطبيعية متواضعة تحبو خطواتها الاولى ، وكان أخطر بحث علمى هو تشريح الضفدعـــة ، فطالب بيساريف بتشريح جسد الانسان للبحث عن روحه !

ولبيساريف آراء غريبـة فى الفن ، فهو يرى انه مضيعة للوقت ، وخير للفنـــانين أن يكتبوا منشورا ، ولذلك فهو يعلن احتقـــاره لبوشكين لانه كان يراجع اشعاره ويدقق فى صياغتها . ويقول : «ان زوجين من الاحذية يفوقان شعر شكسبير » !

ورغم ذلك كله فقد كان يبـــدو على بيساريف الهدوء والاناقة والعناية بمظهره .

وقد لاحظ الكاتب ايفـان تورجنيف ، ان كل شخصية انسانية تحتوى فى داخلها على مأساة ، وان كانت لاتظهر من أول نظرة .

والحقيقة ان تورجنيف هو أول من اخترع كلمة « النهيلست » والنهيلزم . وكان ذلك فى قصته « الآباء والابناء » ، وقد صــور فيها شخصية بيساريف بالذات : واختار لها أسم « بزاروف » .

ويقول تورجنيف انه تصور بيســـاريف قبل ان يلقاه ، وقبل ان يعرف عنه شيئا « تصور ان بازاروف عمـــلاق ضخم وحشى مضبب ، جذوره عميقة فى الارض ، قوى .. لاذع .. مر .. أمين ، حكم عليه بالتخريب لانه رغم هذه القوى التى يملكها لا يزال على باب التاريخ » .

والحقيقة أن العدميين لم يقفـوا على باب التاريخ : انهم ركلوه بأقدامهم .. ثم دخلوا .

فلقد عاشت روسيا فى أفكار مثالية نقلتها عن بروســيا ... وكانت الصالونات الادبية مليئة بالارستقراطيين المثقفين .. الذين يتبادلون أفكار شيلنج وهيجل وكان المثقفون يقضـــون لياليهم

الطويلة ، يتناقشـــون فى مثالياتهم ، ويتلذذون من عادة الحديث فيما قالوه من قبل . وكان الرجل الانيق يبحث عن الجماليات .

وظهر العدميون كرجال خشنين ، تستبد بهم الافكار الثارية ، والثورة على الجماليات والادبيات والمثاليات ... وكل المثل .. ووقفت العدمية بسيفها كرجال الاساطير تضرب فى كل اتجـاه .

لقد كانت الهوة كبيرة بين المفكرين والفلاحين .

وكان الفلاحون يفورون فورات غاضـبة ، ثم يشنقون فى نفس الاماكن التى قاموا فيها بعصيانهم .

وكانت روسـيا كالارض البركانية تفور بالاضطراب .. ولكنها اضطرابات منعزلة .. متفرقة .. حتى لقد قام الفلاحون ب ٥٥٦ حركة تمرد وعصيان فى عهد نيقولا الاول وحده . مع ان هذا الحكم لم يزد على عشرين عاما .

ومع ذلك لم تكن هناك صلة بين الفلاحين وبين المثقفين .

والمفكرون مغضوب عليهم محتقرون مضطهدون .

فأول كاتب اصلاحى ظهر فى روسيا واسمه الكسندر راشيديف كتب « رحلة من بطرسبورج الى موسكو » ، واستوحى فيه كتاب شترن « رحلة عاطفية » وهو أقرب الى يوميات عيسى بن هشام للمويلحى . فيه صـياغة قصصية ونقـد لاذع لبعض الموظفين والدولة ..

ومع ذلك كان نصيب راشيديف السجن جزاء كتابه المستنير .

وأول فيلسوف روسى وضع السؤال الهام الذى يميز دائما كل الأمم حينما ترفع رأسها بعد سبات عميق . فتتساءل أين نحن ؟

فقد تساءل راشيديف هذا السؤال الهام :

ـ هل روسيا جزء من الشرق .. أم قطعة من الغرب ؟

ولكن القيصر اتهم هـــذا الفيلسـوف بالجنـون ، وأودعه مستشفى المجاذيب .

ولم يظهر فى روسيا مفكر اشتبه لحظة فى حسن نيتـــه حتى أودع السجن ، أو نقل الى سيبريا .

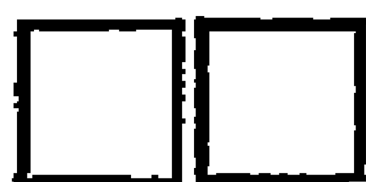
وقد عاش الروسيون فى هذه الظلمات ضحية أكاذيب متبادلة : يكذب عليهم ويكذبون على انفسهم ، كما لاحظ القصاص جوجول .

وبينما كانت الارستقراطية تتمتع فى المدن فى القصور ومقاصير الاوبرا ، ونساؤها يحملن أغلى المجوهرات ورجالها يتوارثون الثراء والاستبداد . كان الظلم يفتك بالفلاحين ، والاستبداد يهدد المفكرين ، حتى لقد قال دستويفسكى :

ـ ولدت العدمية فى روسيا .. فكلنا عدميون !

ولكن ماذا بقى من العدمية الآن ؟

لقد كانت احراقا واحتراقا .. وانطفأت شعلتها كما تنطفىء النيازك المضطربة .. ولهذا اشتقت أسمها وأفكارها وحياتها وآلامها من .. العدم ! .



دمعة المرأة أثقل من حجـارة الهرم ·

ايفتوشينكو



● ايفتوشينكو ●

طائر العذاب

صحبة

الشعراء تعلم الغواية . وقد علمني ايفجني الكسندروفتش ايفتوشينكو الغواية المتعة . فقد كنت قبل مجيئه الى مصر ، أضع رقبتي – كما توضع الرقبة تحت المقصلة – تحت عشرات الكتب التاريخية التي تدرس تاريخ مصر في عصر المماليك . وكادت الكتب تتلف مزاجي . واصابتني بما يشبه الغثيان «العتيق» . فزدت صمتا . ودأبت على الغرق بين دفات الكتب . وخشيت على نفسي من الغربة في القديم . فاذا بهذا الشاعر الذي أتي مصر بالصدفة ، وكان من نصيبي ان اصاحبه على غير موعد ينجد روحي وينقلني الى عالم جديد تماما . فيه كل جدة الحلم . لان الحلم هو الشيء الوحيد الذي لن يتكرر . لايعاد أو يستعاد وكأنه غسل روحي بمطر نظيف !

وحين قيل لي : ستكون معه ، أشفقت على الكتاب الذي سأعطله ، وخاصة انني لا أعرف عن الشاعر شيئا كثيرا ، وما أعرفه عن الشعراء أن لهم نزوات ومفاجآت .

ولكني – حين صحبته – في نواحي مصر ، اكتشفت نوعا جديدا من التعب المتع . وأصابتني من صحبته ومفاجآته متعة مسكرة وأصبحت أرى الناس والاشياء والآثار والرسوم ، وحتى بعض الشخصيات التي عرفتها زمنا طويلا ، بعين شاعر موهوب . وادركت ان الشاعر الشديد الحساسية مثل كرة من كرات الساحرات البلورية ، تجمع الكون في بلورة ، ملء اليدين ، ولكنها تعكس آفاق الكون المتسع ؛

وقد عثرت في ايفجني ايفتوشينكو : أيضا عن شخصية ساحرة . كأنها طائر ملون جميل . متعدد الالوان . صوته فيه ملوحة الملح الرشيدي الخشن . وقامته شمعية . يسير مختالا ، في نوع آخر من الاختيال غير ذلك الاختيال الذي يؤدي الى الكسل . ولكنه لم يكن يسير . بل كان يرتج كما ترتج المياه بين خطين رفيعين طويلين . فلم أحس أن قامته – أو أسمع صوته المالح – على جسد . بل على روح شفافة ، حمراء ، زرقاء . باهتة البياض . واحيانا شديدة الامتقاع . .

وأول الامر ، أحسست انطباعا خاطئا . انه مزيج من ايفان الرهيب . وهاملت الحائر . من الشظف . الوحل . الجليد . القسوة والمعاناة الروحية . من جليد سيبريا ؛ ومن أزهار المساء الاوربية . ولكنني

بدأت اكتشف ان فيه حساسية مفرطة توشك على العطب ، كما تفسد الفاكهة ، وان فيه صدقا خاصا ، ومن نوع نبيل .

ولم أحاول ان اسأله أى سؤال صحفى ، أو حتى أدبى ، بل تركت الصدفة تكتب معى هذا التسجيل « الذى اختصره حتى الاقتضاب » . ولكننى وددت أن أشرك معى القارىء فى صورة انطبعت بها عن هذا الشاعر المتدفق ، الذى زار مصر لاول مرة ، والذى قال انه سيعود الى مصر غير مرة .

شاعر أحب مصر كما يحبها اطفال القرى ، وتلاميذ المدارس .

حبا بريئا مباشرا .

وحين اقترحت راجيا أن يرى مسرح الجيب ، ليشهد مسرحية ناظم حكمت «أ.ب» ، وكنت رأيتها — بالصدفة — قبل وصوله بليلة واحدة . فأخذت بالتمثيل والايقاع والاخراج . ووددت أن يرى الممثلين الشبان عندنا ، فليس خيرا من الشباب ليقنع الشباب قال ، وهو احيانا يتكلم بطريقة صارمة ، يظهر فيها صوته المالح ، وتكاد تظن فى لهجته كثيرا — أو قليلا — من الجفاء :

— أنا وحدى مسرح بأكمله :

وظننت به الغرور . وقد ظن ذلك بعض الذين التقوا به عابرين ، أو بعض الذين رحبوا به بكلمات معسولة ، وأذرع مقفلة ! ولكننى اكتشفت فيما بعد أنه تعود ان يطلق آراءه على طريقة الشعراء ، احكاما مرسلة . كأنها مطلع قصيد ، أو خاتمة نهاية ، كأنه يلخص خبرته أو معاناته ، فى أقل الكلمات عددا ، وأثقلها بالشجن . وقد تأكد لى انه من الشعراء القلائل الذين عرفتهم ، ويتصرفون فى يومهم وليلهم تصرف الشعراء . فبعض الشعراء — الذين تعرفونهم — تحس أن لهم ساعات ارسال شعرية . وبقية ساعات يومهم يصبح الواحد منهم موظفا أو مهرجا أو مدير دعاية لنفسه ! لكن ايفتوشينكو يعيش ويتنفس الشعر . فهو يعلق على أى شىء صغير يراه بعينه ، بنظرة شاعرية أو صورة شعرية . طفاية السجائر مثلا ، وصفها على البديهة بأنها « مقبرة الافكار » وهو يتحرك وثبا كالطيور التى لاتطير ، وأحيانا كالممثلين الذائعى الصيت ، أى انه ينظر وينظر اليه ، ويشهد ويُشاهد ، ولم يسأل عن ثمن أى شىء ، ولم يذكر شيئا يملكه غير بعض اللوحات المشهورة لبعض اصدقائه الرسامين .

وتأكد لي أنه كان صادقا . حين قال انه « مسرح وحده » لانه لم يذكر خلال عشرة أيام كاملة مسرحيـة واحدة ، بينما لم ينقطع عن الحديث عن الشعر والرسامين بالذات . واستنتجت انه يعيش فى عالم الكلمات والصور فقط . أى عالم الشعراء والرسامين . وكان حديثه عن شعراء روسـيا بالذات حديث الدارس المحب المتعمق .
وقال انه يحفظ ٥٠ ألف بيت من الشعر الروسى القديم والجديد . وان له ذاكرة ذات شهية فى حفظ الكلمات ، وولع بتقليب المعانى ، واشتقاق الالفاظ . ونحتها أو تحريفها . وحين ذكر انه سوف يتعلم العربيـة قال : لانه وجد فى الشعر العربى الذى سمعه شبها « غريبـا » — من ناحية الايقـاع — بشعر جورجيا . أخصب اشعار روسيا .

وكان ايفتوشينكو قد سمع من صلاح عبد الصبور قصيدتين — همسـا — ظل يعلن اعجابه بهما ، مرات متتالية ، كما انشد له أحمد عبد المعطى حجازى قصيدة « السيرك » وكانت عيناه تغيمان بزرقة غريبـة ، حتى خيل الى أن دموعه مثل عينيه زرقاء ، ولهذا فهو لايبكى ابدا .

وقد التقط من العربيـة « شكرا » ، وكلمة «دمار» لانها كلمة فى ترجمة أقوى قصـائده وحين سمع من شـعرائنا المصريين كلمة «القافية» سأل عنها ، ثم قال ان الشعراء هم « المافيا فى القافية » أى ان الشعراء هم عصابة القافية فى العالم .

وهو يعيش مع الشـعراء القدامى والجدد ، كأنهم الى جواره ، وهو يجلس على حجر بوشكين ، ويسند رأسه على صدر ماياكوفسكى . ويعطى يده الصغيرة الدقيقة ليد باسترناك .

وقال أن بوشكين هو استاذ الاساتذة ، وانه أعظم شعراء روسيا قاطبة ، وان فى دمه دما افريقيـا ، كما انه — هو دمه خايط بدماء الروسية وغيرها — وكان يحكى عن بوشـكين آقاصيص عدة ، كلما جاءت المناسبة ، عن قصته مع القيصر ، وايفتوشينكو يحفظ كل الاقاصيص والنوادر والنكات والقطاعات التى حدثت لشعراء روسيا ، وهو يعرف المغمورين والمشهورين ، وهو يتذوق القديم والجديد بلا تخصيص ، واحيانا ينقب عن المغمورين فى عصور قديمة ، وحكى عن أحد الشعراء المعاصرين لبوشكين ، فقـال انه كان أقل منه شهرة وشأنا ، ولكن بوشكين ألقى عليه الظل ، وفهمت انه ينقب فى اشعار روسيا عن أى شعر جيـد وصادق . وانه يكره المدارس النقدية ،

وكثيرا ماردد انه لايفهم مدرسة الواقعية الاشتراكية ، وانه يضيق بتقسيمات المذاهب من سورياليـــة أو انطباعية أو غير ذلك . فهو يبحث عن الاجود والافن والاصدق : من أى بلد أتي فأنشد

وايفتوشينكو يتذوق من الاجانب أشعار رامبو الفرنسي، ويعجب بقصيـــــدة « القارب الثمل » ، وانتقل فجأة ليقول انه يحب وجه باسترناك حبا باهظا ، لأن وجهه يبدو عليه أنه ثمل من غير خمر .

وهو يعجب كذلك بدايلن توماس . وهو شاعر فردي شـــديد الفردية ، ولكنه سامق الرقى .

وتستطيع أن تلمس من حديثه انه ينجذب الى الشعراء المحترفين، ويكره الاحتراف فى أى شيء .

وقلت له انني أحب لوتريامون ، وهو الشاعر الفرنسي الذى يقول مامعناه أن نقطة من دماء الشاعر « أو المفكر » لاتمحوها مياه البحار

وقال ايفتوشينكو :

ـ غريب . لقد كنت افكر فى معنى مقارب . بعد أن زرت الهرم . فطاف بخاطرى معنى يقول : ان دمعة المرأة أثقل من حجر الهرم .

وابتسمت من هذا التصريح النابليونى ! حين قال نابليون لجنوده ان اربعين قرنا من الزمان تطل عليكم .

وبدأت صورة الشاعر تنكشف لى .

انه يحب الرسوم والحكايات والكلمات . فماذا سيقول عن آثار الفراعنة ، وعن مصر القديمة ، وأحيائنا الشعبية .

وذهبنا الى أسوان والاقصر . ولم يحمل معه حقيبة ما . ولا جواز سفر . ولم يشرب القهوة أو الشاى . وكان يفطر على العسل النحل والبيض غير المطبوخ ، وكان يستأذن لينام ربع ساعة ، ليعود كأنه قد نام ساعات عديدة : ونكت أنيس منصور كالعادة قائلا : حين سئل اوسكار وايلد عند وصوله الى امريكا :

ـ هل لديك ممنوعات ؟

فقال :

ـ لست أحمل غير عبقريتى .

وأصبح مسافرنا بلامتاع أخف المسافرين واظرفهم . بضع حبوب الادوية . فرشاة أسنان ، ماكينة حلاقة .

واستغرق فى النوم على صوت الانتينوف . وحين وصل الى مطار اسوان فاجأنا بنشاط مفاجىء :

ـ الى السد العالى فورا .

وقف على الستة عشر مترا التى تتجمع فيها انفاق تانى نهر فى العالم ، واندفعت المياه امامه . وتركناه بين الآلات الضخمة والروافع الحديدية ، والضجة العالية . وقال فجأة « ايفا » :

ـ سأذهب الى الروس .

وبعد نصف ساعة ، كان يصعد جسم السد العالى ، ويبدو انه طلب ان ينزل الى أحد الانفاق المعتمة .

وعاد سعيدا .

وقدم لنا صديقين .

وقال ان احدهما صديق له من أيام الصبا ، من بلدته سيبريا وقال الصديق أنه حاول أن يحضر آخر مرة احدى حفلاته فى موسكو ولكنه لم يجد مكانا .

فأسعده ان يرى الشاعر بنفسه فى اسوان واسعد الشاعر ان يرى صديقه ، وتواعدا على المساء .

وقال ان الروس قالوا له انهم يحبون المصريين لانهم متوقدو العاطفة ، مفتوحو الاذرع ، وانه خاض فى أحد الانفاق ، فابتهج من طرطشة الوحل ، وقال ان الوحل صورة شاعرية روسية تخصص فيها الادب الروسى .

وأروع قصة التقطها فى جولته السريعة بين الروس الذين يعملون حين حكى له أحدهم أن عاملا مصريا «من عمال التراحيل» الذين يتنقلون من مكان الى آخر ، كان قد دعا أحد الروس الى وليمة غداء بمناسبة عيد ميلادد ، فقال له :

ـ اعطنى عنوانك .

فقال له العامل :

ليس لى عنوان .

واجتمعت الحفلة تحت النفق ، واحضر المصرى « البسيط اقتصاديا » أروع مالديه من أطعمة ومشروبات .

واخذ ايفتوشنكو يهلل لهذه القصة . كأنما حدثت معه وادركت أنه يبحث وراء الارقام والآلات والجهود العظيمة التى ترفع السد ، عن تفاصيل العواطف ، والانسان والاشجان أولا ودائما هو مايبحث عنه .

وجاء يقول :

ـ ألم أقل لك . ان بعض الارقام والاحصائيات غير دقيقة .

وكان ايفتوشنكو قدقرأ بعض الارقام عن السد العالى ، ويبدو ان هذه الارقام قديمة . أدخلت عليها التعديلات فى الواقع ، ولم تعدل فى النشرات . وأردت أن أحول الحديث :

ـ أليس غريبا ألا يقبل الشاعر قدرا من الخيال .

فقال ، مرة خرى ، وكأنه يدلى بتصريح :

ـ انما الشعر هو الدقة .

فقلت :

ـ والكمال هو الكسل

وعاد يذكر بوشكين ، فقال انه يقول :

ـ الشعر هو الكتابة بالحبر الابيض .

وتفتحت شهيته . عند السد . على التعرف بدقة على مصر ، ان « يحتسيها » كما قال ببطء ومزاج :

فاذا بالاقصر مفاجأة . كادت تخرجه عن صوابه . ككأس تجرعها على الطريقة الروسية .

ففى وادى الملوك ، كانت الشمس واضحة ، والحر لافحا ، وفيالق السياح مبهورة كأنها فى عالم سحرى ، زادت الشمس من انفتاح أفواهها ، مع أن الدهشة تعقد الألسن : وفى الاقصر اكتشفت نوعا من العظمة المؤلمة ، هى عظمة هؤلاء الفراعنة .

وأخذنا نصوره بين الآثار ، ومع لوحات الراقصات المعروفة ، ووقفنا عند الالوان الخالدة التى ما زالت باقية ، وفى مقبرة سيتى الاول . لم يستطع الشاعر ان يتحرك ، أمام صورة السقف الازرق الملىء بالنجوم ، والالهة « توت » الطويلةالاذرع جدا ، الدقيقةالجسم جدا ، والتى كان الفراعنة يعتقدون انها ترفع السماء بيديها . وتشرق الشمس من فمها ، ثم تغرب على حجرها .

وأحسست أن ايفتوشنكو قد تعب .

وقرر أن ينام مبكرا ، وبطريقة مفاجئة أيضا .

انه ينهل ولا يحتسى من مصر التى قال لى أنها أعقد من روسيا ، وأصعب .

وبقدر ماكان يعجب بالفن الفرعونى القديم جدا كان يطلب أن يرى الفن الحديث جدا ، بل لقد طلب بعد أن رأى المتحف أن يذهب فورا الى معرض لرسام حديث ، وكان قد شهد ـ بالصدفة ـ لوحة للرسام الشاب صالح رضا ، فأعجب بها ، وطلب مقابلته ، وحين التقى بالفنان صلاح طاهر ، أبدى أشد الاعجاب ببعض اللوحات ؛ وكان حين يعجب يجلس ، وحين يضيق يقفز واقفا .

وجلس ايفتوشنكو يقول ان اصدقاءه جميعا من الرسامين ، وانه يحب الرسامين المغمورين أو المشهورين على حد سواء ، وانه صديق لماكس أرنيست ؛ وان لديه لوحات من بيكاسو وارنسيت وجان ميرو ، وانه يعشق شاجال ، وقال انه كان يدع الرسامين يرسمون فى الصباح ، وكان ينام فى مراسمهم بالليل ، وان مفاتيح المراسم تفتح الاقفال الصدئة . وقال ان الحب هو رائحة الاوانى الفخارية التى يضع فيها الرسامون ريشهم » وانتقل الى مرسم صلاح طاهر » فانطفأ النور علينا ، واضاء صلاح طاهر الشموع ، وقال ايفتوشنكو أنه يكره قراءة الشعر فى ضوء الشموع ، واخذ يختار عناوين واسماء لبعض لوحات صلاح طاهر .

وكان ايفتوشنكو احيانا ، يراجع آراءه فى الصباح ، وكأنه يفيق ، وقلت له ان شاجال رائع حقا ، وروسى تماما ، ولكنه من اجمل من يصور الحمير البيضاء ، وقلت له ان عندنا رساما هو محمود سعيد ، وكان مشغوفا بتصوير الحمير أيضا ، وتوفيق الحكيم من المدافعين عن الحمير ، وحين ذهبنا الى الاسكندرية ، ورأى لوحات لمحمود سعيد ، وخاصة تلك اللوحة المعلقة فى متحف البلدية ، وتصور

بنات بحرى ، وبائع العرقسوس ، انخطف قلب الشاعر ، وذهبنا الى معرض محمود سعيد ، الذى تصادف انه يقام فى الاسكندرية الآن ، وقال ان الرسام محمود سعيد من العباقرة القلائل فى العالم ، وأخذ يطنب فى المديح ، وكان صادقا ، فقد ذهب الى مرسم سيف وانلى ، فأعجب ببعض الرسوم ولكنه لم يعلق عليها ــ ويبدوان لوحات وانلى الرائعة بدت له فيها بعض النكهة الاوربية ، وادركت أن ايفتوشنكو يبحث عن مصر فى عيون رساميها وفى حوانيتها القديمة وشوارعها الضيقة .

وكانت زيارته للقاهرة القديمة اثباتا لما أحسسته من ظن ، فقد سرنا عبر مصر القديمة ، فاذا به يجوس فيها كأنه صبى فى غابة بها عشب ، سعيدا مبهورا ، وأخذ يقول أن مصر عوالم متعددة ، وقال كأنه يئن وحين يتألم ، يبرز الملح فى صوته :

ــ رائع .

ثم سكت .

فعرضت عليه أن يدخل لزيارة الحسين ، ودخلنا ، ولم الاحظه ، فقد شدتنى حركة المرور حول القبر ، وروع الشاعر بالنقوش ، ولم التفت اليه .

فقد كان أمامى ، رجل غليظ الوجه ، لو خرج من المسجد لظننته قصابا ، وكان يقبل الرخام قبلة متهدجة مبللة بالدمع .

ومررت بيد كبيرة لأب . تقود يدا صغيرة جدا لطفل ، نحو «خرم» صندوق النذور .

وقال ايفتوشنكو وقد أيقظه الركوب فى العربة

سأصبح صوفيا . أنا صوفى .

ثم مرت العربة بالشوارع الضيقة ، ومررنا على أسبان يشترون ، وفرنسيات يشترين الحرير الدمشقى المزركش بوهج الشرق ، الملطخ بنيران مجوسية !

وكان ايفتوشنكو غارقا صامتا ، ثم قال .

ــ ان الادب الردىء يفسد العلاقات بين الناس وبين الشعوب .

وسكت قليلا ليقول :

ـ ان أردأ ألوان الادب هو الادب المحلى بالسكر . مثل أفلام التليفزيونات « الافلام التى تضع المساحيق على وجه الحياة » .

وقال :

ـ ان الآلام وحدها هى التى تربط البشر . هل تعلم لماذا أحب الاخوة كرامازوف ، لان فيها آلاما عاتية ، وشقاوات مريعة .

وخافت ورائى صورة القبلة المبللة بالدمع مع جزار سابق . وتائب لاحق ، وصوت الشفاه المهتزة من الوجد على الرخام الابيض اللامع .

أى نوع من الشعراء ، هذا الشاعر وما هى هذه الآلام ؟

وبدت لى جملة كأنها شعار مضحك : لكل حسب آلامه . ومن كل حسب أحلامه .

ولكننى كتمت الصورة لسخافتها .

وغاب عنى ايفتوشنكو ، ومرت السيارة بالمناظر اليومية ، فلم يعبأ بها ، كما تمر المناظر امام بائع متجول ، وضع قفصه على الارض بعد تجوال طويل ، واستلقى غير مكترث ، بما يمر امامه .

واخذت اتذكر ما قاله لى عن بوشكين ان حريتنا خفية ، وفى كل البشر حريات خفية ، واخذت استعيد ماكان يقوله عن أبيه الروحى ! باسترناك ، وكيف قضى معه اربعة ايام يشربان ليل نهار ، وكيف وكيف .. وكيف .

اقاصيص لاتنتهى بحكاياتنا ، ولكنها تستمر فى الذاكرة ، وتبقى تحت الجلود .

فأى شاعر هذا الشاب الذى جاء ، ثم اختفى .

وأى عذاب هذا الذى يتحدث عنه ، حتى يقول :

لم أعد أطيق مزيدا .

ولا أحتمل الاقل .

ان فى العذاب لضعفا .

وفى العذاب عذوبة .

فيا للعجب :



التكنولوجيا هى حلم المتخلفين
ولعنة المتقدمين ..



الإرهاب والتكنولوجيا

عندي ، هي باريس . وباريس هي الحي اللاتيني .

فرنسا

وباريس هي شباب فرنسا ، والحي اللاتيني – بلا منازع – هو هذا الشباب .

والحي اللاتيني من أقدم أحيـاء باريس . أقدم من حي الباستيل وحي الجمهورية . ولكن الحي اللاتيني . يتميزعنهما، بأنه قديم وشاب .. لايشيب .

لانه الحي الذى تزدحم فيه الجامعات ، والمدارس العليا ، والمكتبات القديمة العامة .

ولعل هذا هو سر شبابه الدائم ، لانه يستقبل الشباب طلابا ، ويودعهم رجالا .

وقد تعودت ، كلما سنحت لى فرصة « ذهبية » ، ولو ليومين ، أن أمر بباريس . وان أمضى أكثر وقتى فى هذا الحي بالذات .

ومنذ عامين مررت مرورا عابرا بباريس . فذهبت مستسلما عن رضا ، كأن سحرا يقودنى ، الى الحي العتيق الشاب .

فروعة هذا الحي انه قديم جدا ، وشاب جدا . عتيق وثورى ، وفى هذا المزيج الغريب سحر خاص .

ففى قلبه تتربع أقدم جامعة أوربية ، السوربون .

وفيه تتزاحم فى قلبى موجات من الذكريات ذكرى «مغامرات» عقلية وعاطفية .

فلقد أعطيت هذا الحي – راضيا قلبى عاريا ، فشرب منه حتى ارتوى واكتفى . منذ عشرين عاما .

وهذا السوربون نفسه معجزة معمارية .

أبوابه عتيقة .

حوشه يحتفظ بطابع القرون الوسطى ، بلاط أبيض صـــغير ، وحيطان سوداء ، أقرب الى أحواش الكنائس .

والسوربون يقع بين شارع ضيق ينتهى الى ميدان صغير ، فيه تمثال لأوجست كونت ، ثم شارع طويل جدا ، تكتشف أنه أطول شارع فى باريس – ومن أقدمها . لانه يبدأ من تحت اقدام كنيسة

نوتردام الهائلة ، ويمتد الى نهاية باريس من ناحية الجنوب . وقد أطلق عليه اسم القديس جاك ، الذى يرقد مثواه فى أسبانيا ، وكانت قوافل الحجاج فى القرون الوسطى ــ التى تحج فى قوافل خوفا من الطريق ــ فتسير جنوبا ، وتعبر باريس ، ثم تخترق جنوب فرنسا الغربى ، ثم تعبر جبال البرانس ، لتدخل الى اسبانيا حيث مرقد القديس .

وهكذا ، كلما وصلت الى الحى توالت على قلبى الذكريات .

ذكريات أعوام نشيطة مزدحمة ، ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ . حياة تموج بالمنازعات والقلق .

سارتر : كان لايزال يرتقي الى القمة . فيلسوفا للعبث والحرية . لكنه المفكر الذى انتشل الفرنسيين من مرارة الهزيمة ، وصرخ صرخته الوجودية ، التى أصبحت بعده شعارا ذائعا :

ــ « الانسان محكوم عليه بالحرية . وهو يصنع حريته بنفسه . والانسان هو ما يفعله » .

وفى هذه الفترة العصيبة الخصبة ــ أعقاب حرب وهزيمة ومقاومة ــ تعلمت من هذا الحى .. التفرقة الدقيقة بين المعانى .

فالفرنسيون يعشقون اللغة ، ويعشقون الاشتقاقات . ويتذوقونها ، كما يتذوقون لذائذ الحياة والجسد .

ومنذ هذه الايام ، كانت تدق فى ذهنى ، كما تدق فى سمعى ساعة السوربون .

كانت تدق تفرقة بين لفظين ؛ كتبهما سارتر .

أن هناك فرقا بين اليأس وفقدان الامل .

نعم ، فالفارق دقيق ، لكنه مهم .

فاليأس ظلمة واستسلام .

ولكن .. قد يفقد الانسان الامل ، ويظل يناضل ويرفض اليأس .

فارق دقيق ، كما ترى . ابتكره الوجوديون .

(ولكنه أراح الفرنسيين بعد الهزيمة ، واستنهض همتهم للمقاومة) .

لقد فقدوا الامل . ولكنهم رفضوا اليأس .

والفرنسيون - كما قلت - مهرة واخصـائيون فى استخلاص المعانى ، واشتقاقاتها .

اشتقاق آخر ، لا أنساه من أيام باريس ، منذ عشرين عاما .

الفقراء عندهم يقولون : « نحن فقراء ، ولسنا بؤساء » .

فالفقر شيء . والبؤس شيء آخر .

الفقر حالة اقتصادية . لكن البؤس حالة نفسية .

الفقير ، اذا استسلم أصبح يائسا ، ثم بائسا .

والفقر بئر حائطها اليأس ، وقاعها البؤس .

وهكذا ، فالانسان قد يفقدالامل ، ولكن يرفض أن يكون يائسا .

وقد يكون فقيرا ولكنه يرفض أن يكون بائسا .

وفى هذا الحى - الملىء بالحركة الماجنة والساخطةوالغاضبة - لم اهتم كثيرا - لحسن حظى - بتلك المبالغات التى نقلتها الجرائد ، وتناقلتها الالسن عن الوجودية ، وعن حياتهم الرثة ، ومعيشتهم فى الكهوف الموسيقية ، والحانات الضيقة الخانقة .

فقد كان السوربون منارا هاديا كشف لى ان الوجودية ليست موضة ، أو تقليعة ، كما يقال .

انهـا فلسـفة جادة ، أو على الاقل ، اجتهـاد فكرى جدير بالدراسة والمتابعة .

ولذلك حرصت أن أذهب الى مدرجات السوربون ، حيث استمع الى رجال لم أعد أنسـاهم . حفروا حفرا فى ذاكرتى ، بقاماتهم ، واصواتهم ، وهمساتهم .

جان فال : العجوز قصير القامة . رقيق العظام ، دقيق الملامح .

شعره الابيض كالثلج ، صوته مهتز ، لكن ذاكرته عجيبة .

انه يتنقل بالالفى طالب أو مستمع - فليس على السوربون حرس أو حجاب - من بذور الوجودية عند الاغريق ، ويمر بالفلسفة الالمانية ، لينتهى بالفلسفة المعاصرة .

وكان مدرج « جيزو » يمتلىء عن آخره بالشبان والشابات . تطل على الجميع ، لوحات الحيطان من عصر النهضة ؛ وفيها تقديس ـ بالالوان ـ للفلاسفة الاغريق ؛ أو الاساطير اليونانية .

جو مسرحي هائل ! يجعلك « تمثل » الثقافة وقد تصبح مثقفا فى النهاية ، أو على الاقل مشغوفا محبا للثقافة والفكر .

وفى مدرج آخر ، كان ميرلو بونتي . شاب استاذ . وجه خشبي . طويل عريض . صوته فحل عميق . جسم رياضي . قامة شامخة . أنيق بلا مبالغة . تحسبه قبل أن يتكلم ممثلا يليق ، ويتألق ، على الشاشة البيضاء . فاذا تكلم .. أحسست عمقا غريبا . أمواج المحيط تتردد بين صخور الجبال . فاذا تابعت الحديث ، لفحك شيء من العذاب فى صوته . فتعود الى النظر اليه ، لتدرك هذا العناء ، أو المضض فى عينيه اللامعتين الضيقتين .

وميرلو بونتي كان صديق سارتر وسيمون دى بوفوار . بل كان فى ذلك الوقت مديرا لمجلة « العصور الحديثة » . وكانت المجلة مازالت ناشئة وقوية . لكنهما تخاصما ، وانشق عليهما . وتبادلوا ـ ثلاثتهم ـ الاتهامات « الفلسفية » حول قضية الشيوعية والستالينية .

وعلى بعد غير كبير من هذين المدرجين ، كان يقف رجل آخر . ينحني قليلا تحت وطأة التجربة ، لا السن . ما زلت اذكره ، فقد أحببته أيضا ، لانه كان يدرس علم الاجتماع بطريقة جديدة .

كان جورج جورفتش ـ وهو من أصل روسي ، يتكلم الفرنسية بلهجة سلافية . جاء باريس سنة ١٩٣٠ ، وترجم الى الفرنسية بعض كتب هيدجر وهوسيرل ، عن الوجودية ، ولا يزال سارتر طالبا فى الايكول نورمال . ثم هاجر الى امريكا ليدرس فى جامعاتها ؛ ثم عاد الى باريس ليحتل مركز استاذ علم الاجتماع الذى احتله من قبله ووركهايم وأوجست كونت (وقد مات الاخير بحسرة عدم الاعتراف له بمركز الاستاذية فى الكوليج دى فرانس) .

وكنت ؛ حين أتعب ، لصعوبة ما أسمع ، أو عمقه ، اتسلل الى مدرج استاذ كان يشبه فيتوريو دى سيكا ويوسف وهبي . قامة مهيبة . شعر فضي . أناقة بالغة . ثياب سوداء ونحن فى الصباح . ايماءات مسرحية . صوت أقرب الى أصوات مغني الاوبرا . وكان يحول المدرج الى مسرح . وله الحق ، فقد كان يدرس علم الجمال .

كان اسمه موسيقيا : اتيين سوريو .

ومن هؤلاء الاربعة الذين كانوا — فى هذه الفترة — يملأون السوربون جدية ونشاطا ، عرفت متعة السمع ، ورهبة الدرس ، واستغراقة التصوف « حتى فى صدر الشباب » .

ولو شئت أن أستمر فى هذه الذكريات لأطلت ، وخرجت عن الموضوع .

ولكننى تذكرتهم جميعا ـ وأنا اتنقل بين شوارع الحى اللاتينى فى الليل وحيدا .

كان هؤلاء الاربعة قد ماتوا جميعا .

حتى هذا الشاب ـ الطويل القامة ، العميق الصوت ، الرياضى الجسد ، ميرلوبونتى ـ مات فجأة .

وأصبحت أمر على السوربون ـ كأننى أمر على الذكريات .

ان الذين نحبهم هم الذين يملأون الاماكن ، والحيطان .. والشوارع

وبعدهم تصبح الاماكن والحيطان والشوارع مجرد حجارة مرصوفة ، أو مصفوفة ـ جرداء ملساء ، مثل حيطان السجون !

ولم يتركنى الحى اللاتينى — فى المرة الاخيرة — وحيدا . لانه لم يكف عن الازيز النشيط . فالساعة .. الواحدة بعد منتصف الليل . وبولفار سان ميشيل يمتلىء بالعشرات يصعدون ويهبطون . والمحال لم تقفل . اذ تظلم الجامعة ، وتضاء المطاعم ، والمقاهى .

لكنى أحسست شيئا غر.. لم استطع اكتشافه .

ليس بالحى اللاتينى شارع لم يخلده كاتب أو فنان أو مفكر .

سان جاك — من ورائنا — كان يعيش فيه الكونت كلود هدني مابتزار دى سان سيمون . ياله من اسم ! لاول اشتراكى فرنسى !

وهذا الشارع الصغير جدا ، الذى ينشق عنه ، شارع فيانتين : كان يسكن فيه فكتور هوجو ، وله قصيدة فيه عن طفولته وصباه فى هذا الشارع ، لانه كان يدرس فى احدى مدارسه الابتدائية .

شارع جى لوساك ، كان مقرا لجمعية الفلسفة الوضعية ولا يزال هذا المقر موجودا — والتى أسسها **أوجست كونت** منذ أكثر من مائة عام ..

وذلك الشارع — على بعد خطوات — يصب فى ميدان فيه نافورة بيضاء رائعة — مضاءة بالليل ، يطل على حدائق اللوكسمبورج ، ويصعد الى البانيتون — أو مقبرة العظماء — ويصل الى مكتبة سان جنيفيف العتيقة . مكتبة تشبه مكتبات القرون الوسطى . حيطانها مغطاة من الارض حتى السقف بالكتب القديمة . وما زالت الكتب ترفع من المخـــازن فى الدور الارضى الى الادوار العليـــا بأدراج حديدية ، لها جنازير ، وصرير ، يقطـــع الصمت ، لكن الجميع تعودوا على هذا الصوت ، وبعضهم يلتفت له مرحبا . لانه يعلن أن دفعة جديدة من الكتب النادرة قد وصلت ، وقد يكون بينها ما ينتظره ، فينزل على كتابه القديم النادر كما ينزل الجائع على مائدة حافلة ..

وهذه المكتبة العريقة العتيقة هى المكتبة التى ارتوى منها **طه حســـين ، وزوجته** ، لان بها مجموعة نادرة من الكتب الشرقية والاسلامية ، وقد قرأ فيها طه حسين كتب استاذه كزانوفا ، قبل أن يعد رسالة الدكتوراه عن **ابن خلدون !** ..

وأحسست بالتعب ..

ودخلت أحد المقاهى الليلية ، باهرة الضوء ، يتصدرها بنك ، وراءه جرسون يشمر عن ساعديه — وجرسونات باريس يحبون الرياضة والنساء — واخترت جلستى فى مكان هادىء .

— سأشغل وحدتى ، بوجبة بالمضغ والشرب .

وطلبت قطعة من اللحم ، وأنا أحاور نفسى فى شىء آخر ..

— ان الحى لم يتغير ..

انه نفس الصعود والهبوط فى بولفار سان ميشيل ..

نفس السهر بلا مبالاة ..

نفس الاقبال على الحياة ..

كأن أيام الشباب تعطى لك على سبيل التجربة فقط . وكأنها **لا تحسب من العمر** .. كالبائع الذى يعطيك قطعة من باب التذوق مجانا . لا تحس انها محسوبة فى الميزان ..

لكن صوتا — وأنا فى غاية الســـعادة والتعب — كان يهمس فى أذنى :

— ان شيئا ما قد تغير فى الحى اللاتينى وصوت آخر يعاكسه :

— لا شيء قد تغير على الاطلاق ..

نفس القبلات فى المترو . على شاطىء السين . تحت مصابيح الشوارع . الى جوار الابواب . على النواصي . نفس المكتبات — المضاءة ليلا — والتى تعرض الكتب الحديثة ، كأنها مخابز تعرض خبزا خارجا لتوه من الفرن . نفس « الجى بوكس » ، والاقبال على النبيذ . واتلاف الصحة ، والاسراف فى السهر ..

الحى لم يتغير كما ترى

وقال صوت آخر :

— انها وجوه شابة فعلا . وضحكات شابة فعلا ..

ولكنها ليست الوجوه الشابة التى عرفتها فيما مضى ، وليست الضحكات التى سمعتها .

هذا هو الفرق .

انه شباب آخر ، لانه جيل آخر ..

وقال الصوت مؤنبا :

— كان عليك أن تذهب الى جى آخر . غير حى الشباب .

ألم تدرك حتى الآن ، أن أحياء باريس مقسمة جغرافيا . بالنسبة لموقعها من النهر وهى أيضا مقسمة من ناحية العمر .

ان ضفة اليمين ، التى تقع فيها الاوبرا والمادلين والبورصة والاحياء الإرستقراطية هى الاحياء التى يسكنها الرجال والكبار وحتى مونمارتر ومونبارناس ، نادرا ما تجد فيها شابا ، بينما الحى اللاتينى هو حى الشباب دائما ..

وجاء الجرسون بطبق اللحم . وأخذت أقضم الخبز ، وهم يأكلون كما نأكل كثيرا منه — ولكننى أحسست أن شكلى غريب تحت الضوء الشديد ..

فأنا الوحيد الذى يستعمل الشوكة والسكين ..

بينما جيرانى لا يقضمون غير السندويتشات فى هدوء

والتفت الى جانبي ؛ فاذا بفتاة شابة ؛ تتفجر جمالا ، وامتلاء ، وصحة ؛ والى جوارها شاب لا تكاد تميزه عنها ، لان شعره ناعم مسترسل ..

وكانا يتضاحكان ويتهامسان فيما يشبه الخلاعة ..

وبدأت أرتبك ..

وبسرعة عجيبة ، كانت يدى تقذف بالاكل الى فمى ..

لاننى لا حظت ان الشاب والشابة لم يطلبا غير «قهوة سوداء» .

وكانا يحصيان الفرنكات الفكة فيما بينهما . فالفتـــاة تفتح حقيبتها « الانيقة » ، والفتى يبحث فى جيوبه ..

ثم جمعا شجاعتهما ــ بظرف ــ وطلبا منى أن أمد اليها الطبق الذى توجد به قطع السكر ..

وجلسا سعيدين يقضمان قطع السكر ..

وكان هذا ايذانا لى بأن انتهى فورا من آكلتى المتواضعة ، وأن أضع الشوكة والسكين جانبا . فالى جوارى جاران لطيفان شابان يتضوران جوعا ..

واستأذنتهما بلطف لادعوهما الى قهوة سوداء أخرى .

وكانت فرصة لكى أحدث هذا الجيل المسترسل الشعر ، الذى يملأ الحى اللاتينى ..

وتبينت أن الفتى يدرس الفلسفة فى السوربون . وان الفتاة تدرس الفنون الجميلة (وبعض الدراسات شكلية ؛ اذ تلتحق الفتاة باحدى الكليات لكى تقنع أهلها بالسماح لهـــا بمغادرة الاقاليم ، والذهاب الى باريس) ..

وقلت لهما اننى كنت أعيش فى الحى اللاتينى مدة . ولخصت لهما حياتى باختصار حتى أستطيع الحديث بحرية ..

وسرعان ما نسيت المقاصيص الطويلة التى تسترسل من شعر الفتى ، وهو يناقشنى بحـرية ، وروح فكهة قائلا : انه لا يؤمن بديجول ..

قلت : اذن تعطف على الحزب الشيوعى ..

قال : لقد شاخ الحزب الشيوعى ! انه حـــزب الثوريين من الاجداد : ..

قلت : اذن سارتر ..

قال : راحت عليه ..

قلت : اذن من ؟ ..

قال : شى جيفارا ..

قلت : لماذا ؟ ..

قال : ثورى يرفض الاستفادة من الثورة .. والثورة عطـــاء وليست أخذا ..

قلت : ومن أيضا ؟ ..

قال : ماو ..

قلت : ومن أيضا ؟ ..

قال : هوشى منه ؟ ..

قلت : الا تلاحظ أن الجميع ليسوا من أوربا ؟ ..

قال : لا . هناك ماركوس ..

قلت : من ؟ ..

قال : هربرت ماركوس . أمريكى أصـــله المانى يكتب بالالمانية والانجليزية ..

قلت : لا أعرفه ، ولكنه أمريكى كما تقول ..

ألم يعد أحد من المفكرين فى أوربا ؟ ..

قال : فلتحترق ..

قلت : والسوربون ..

قال : طظ ..

(وله كلمات أخرى أكثر اهانة من طظ) ..

وانتقل الحديث الى الفن . فتحدثت الفتاة ، وعدت أسأل عن « ماركوس » هذا الذى فتن به الفتى فقال :

ـ انه صعب جدا ، ولكنه مثير جدا ..

ملحوظة : هذا ملخص للحديث الذى استمر ساعتين ، لم يكن ينقطع الا لتبادل الفتى والفتاة القبلات . وكانت الفتـــاة تبادله القبلات السريعة ، والهادئة أيضا ـ وكأنها تعلن موافقتها كلما أعلن رأيه عن ديجول ، أو سارتر ، أو جيفارا ، أو السوربون ، أو هذا المجهول ماركوس وطالت القبلات حين تحدث عن ماركوس ..

وحين حدثت أحداث مايو فى باريس ، انتشرت النيران والتدمير فى شوارع الحى اللاتينى ، وكان سان جاك وجى لوساك ، وشارع المدارس ، وشارع سوفلوه ، أماكن المتاريس الغاضبة ، والشعارات اللاذعة ، ومخابىء لصنع قنابل مولوتوف . وفجأة لمع ـ فى العالم ـ اسم هذا الفيلسوف الذى بلغ الســـبعين ، وظل مجهولا ، حتى أدركته حركة الطلبة ـ التى انتشرت فى أوربا ـ فاذا به يصبح أشهر فيلسوف هذه الايام ، واذا بالمطابع تنشر له مؤلفاته العديدة

وأخطرها هو هذا الكتاب : « الرجل ذو البعد الواحد » ..

والكتاب يفسر ماذا وراء حركة الطلبة المتمردين . وكيف يغذى هذا الفيلسوف قلق الطلبة الاوربيين وغضبهم ، وسخطهم .

وحين قرأت هذا الكتاب الاخير ، هذا الاسبوع ، وجدت صعوبة شديدة ، لان لغته فلسفية ـ وهو أقل تعقيدا من كتب سارتر . ولكنه فى بعض الصفحات يفوقها تعقيدا ..

والرجل ـ كما يبدو ـ وهو فى السبعين كان يكتب لا ليقرأ . ولا ليكون لنفسه مذهبا ، ولا جماعة من الانصار ..

بل لقد لاحظوا أن كل أساتذة الجامعات الامريكية ـ وخاصة فى العلوم السياسية والاجتماعية ـ تكون لهم شلل من طلبتهم . ولكن هذا الاستاذ ليس له أحد ..

والغريب أنه أصبح فجأة كاتب الشـــباب الغاضب فى أوربا بأسرها ..

وهذه دار النشر ـ ايدسبون دى مينويه ـ أى دار نشر منتصف الليل ، التى تنشر أرقى الدراسات اليسارية والانسانية هى التى تتولى ترجمة أعماله الى الفرنسية ..

وتستطيع أن تستنتج متابعه الفكرية الاصلية - لانه ترك المانيا فى عام ١٩٣٣ ، اى فى أيام النـــازية ، وفى نفس السنة نشر كتابا بالالمانية عن هيجل ، ثم دراسة عن العائلة والسلطة ؛ ثم كتابا عن الثقافة والمجتمع ، كما كتب بالانجليزية عدة كتب منها كتاب عن الثورة والعقل ، وكتاب عن هيجل والنظــــريات الآجتماعية ، ثم كتاب عن الجنس والحضـــارة ؛ وكتاب عن فرويد ، وكتاب عن الماركسية السوفيتية ، وأخيرا هذا الكتاب :

ـ الرجل ذو الاتجاه الواحد - أو البعد الواحد ..

ومن الواضح أن هربرت ماركوس يبدأ بدراسة هيجل ؛ ونقد ماركس ، ودراسة فرويد ، ويهتم بدور السلطةوتأثيرها علىالحرية .. وكل هذه اهتمامات لا يستطيع أن ينجو منها مثقف فى أوربا والفكر الاوربى ..

لان هيجل وماركس وفرويد قلبوا نظرة الانســـان بل الطبيعة الانسانية ، والتاريخ الانسانى - وعلم النفس ..

فهل يريد ماركوس أن يمزج ويوفق بين ماركس وفرويد ؟

ـ انها محاولة جديدة ..

فلقد سبق فيما بين الحربين أن ظهرت الدادية والسوريالية ، وكان انجيلها كتب ماركس وكتب فرويد ..

ولكن الدادية والسوريالية كان أبطالها من الشعراء مثل أندريه بريتون ، وبول ايلوار ، واراجون ، وروبير ديسنوس وهنرى ميشو ومن الرسامين سلفادور دالى ، وماكس أرنيست .

وكانت السوريالية ثورة على الحرب ، والفوضى الرأسمالية . والســـلطة فى الدولة ، والاسرة ، ودعوة الى الحب المباح ؛ بل أن أندريه بريتون هو صـــــاحب نظرية الحب المجنون ؛ أو أعجـوبة ومعجزات الحب بالصدفة ..

ويبدو أن هذه الموجة قد انحسرت تماما بعد الحـــرب العالمية الثانية ، ولم تبق منها غير أعظم الاعمال الفنية للرسامين - وأروع الاشعار والقصائد التى انعشت الشعر الفرنسى بالذات ..

وها هو ماركوس من جـــــديد ، يحاول التوفيق بين الماركسية والفرويدية ..

ولكن الخطير ، أنه يملأ هـــذه الاركان الخالية التى لم تملأها السوريالية . لانه يكتب عن السـياسة والسلطة والدولة .. والحرية الفردية ..

وأخطر ما فى كتابه : انه يعلم تماما الماركسية : ويدرس بدقة المجتمع السوفيتى ، ويعيش فى المجتمع الامريكى .

وهذا هو سر تأثيره على الشباب الاوربى :

انه يفسر للشباب ، مأساة المجتمعات العصرية .

ففى المجتمع الذى يسبق الرأسمالية . والذى يتمنى أن ينهض من كبوة التخلف ، للحاق بركب التطور ، أو ما يسمونه التفوق التكنولوجى ، هذا المجتمع يقع تحت سطوة الارهاب ..

فالارهاب هو القـوة التى توحد هـذه الشذرات المتطايرة ، والجموع المتنافرة ، والاراء المتضاربة ..

ولكن الاخطر من ذلك ـ بالنسبة للقارىء الاوربى ـ هو أنه يعلن ان المجتمع الصناعى المتقدم ليس أفضل . ولا أحسن ..

لأنه يضع بدلا من سطوة الارهاب ، سطوة أعتى وألعن ..

انها سطوة التكنولوجيا ..

ان الآلة التى تتطور لتقلل جهد العامل والعقول الالكترونيـة ، والسفرالىالفضاء ، والتسهيلاتالرائعة ففىهذاالمجتمعالاستهلاكى، المسمى مجتمعالرفاهية ، أو مجتمعالوفرة ، هو مجتمعخادعمزيف.

لـماذا ؟ ..

لان التكنولوجيا حلم المتخلفين ، هى لعنة المتقدمين .

فالتكنولوجيا توفر ، ولكنها تفرض نوعا «جديدا» منالاستبداد « المقبول » .

هذا هو مايلاحظه ماركوس على المجتمعات الصناعية المتقدمة .

فاذا كان ماركوس قد لاحظ أن المجتمع الصناعى الناشىء انما يستند الى الاستغلال العضلى للعـامل ، أى تشغيل العامل عشر ساعات ، أو اثنتى عشرة ساعة ، فان هذا المجتمع الصناعى الحديث انما يستند الى الاستغلال العصبى للعامل .

لقد تغير الامر بعد تقدم التكنولوجيا .

ولكنه لم يتغير من الناحية الانسانية .

انه تغير مظهرى رهيب .

لان الاستغلال العصبى حل محل الاستغلال العضلى .

ان العامل أمام الجهاز الالكترونى يحتاج الى أعصاب يقظة ، وحتى عاملة التليفون تحتاج الى أعصاب يقظة ، والطيران ، وغزو الفضاء ، والانتاج بالاتوميشين : وكل مظاهر التقدم التكنولوجى نقلت مركز الضغط والارهاق من عضلات البشر : وعرقهم الى أعصاب البشر .

ولكن هذا الاستغلال الجديد يجعل المرهقين يعرقون الى الداخل ؛ لا الخارج .

وهكذا تتطور الدولة الصناعية الحديثة — بمنطقها وتنظيماتها — لتضغط على الحريات الفردية ، والاجتماعية .

وحتى انقاص ساعات العمل ، قد يبدو لاول مرة : تقدما اجتماعيا خطيرا ، ومطلوبا .

ولكن المجتمع الصناعى الحديث يعطى مزيدا من الوقت الفراغ ؛ ولا يعطى الوقت الحر .

وهنا : نصل الى تفرقة دقيقة .

ان الوقت الفراغ هو الوقت الذى تملؤه السخافات ، والوقت الحر هو الهواء النقى الذى تستعيد به النفس صحتها وعافيتها .

ولكن هذا المجتمع الصناعى الحديث يعطى ابناءه ، مزيدا من الفراغ ، لا مزيدا من الحرية .

فهذه الاجهزة الجهنمية : مثل التليفزيون وسخافاته ؛ ومثل العلاقات العامة ، ومثل الدعاية ، ومثل التأثير على الرأى العام ، وللدخول فى الحياة الكامنة للانسان ، كلها أجهزة تدمير للانسان انها تدمر حريته ، وتختلس عمره ليفنيها فى سخافات ، وتخدعه فيظن راضيا ان هذا هو التقدم الانسانى الحقيقى .

ان ماركوس يشرح — متفلسفا — هذه القضية التى سبق أن لخصها أنورين بيفان فى كتابه «بدلا من الخوف» ، حين قال مامعناه :

ــ آه ، لو تقدمت الامور فى المجتمع الصناعى ، فتوافرت الاغذية والادوية واجهزة التليفزيون ، ووسائل الراحة المادية . ثم سرقوا أرواحنا . .

فقد قال أنورين بيفان :

ــ لسنا نريد الموت تعساء أمام اجهزة التليفزيون .

نعم !

فهل غاية الانسان ــ من هذا التقدم التكنولوجى العظيم ، أن يصبح عنده ثلاجة وسيارة وتليفزيون وغير ذلك من التسهيلات المعيشية ، ولكن « روحه » تسرق منه بالتفاهات والثقافة السطحية والتزييف .

هذا هو السؤال ، الذى يطرحه كل الاوربيين ، وبعض الامريكيين ، حين يتساءلون عن غاية التقدم التكنولوجى الباهر .

ويحلل هربرت ماركوس ظاهرة حلول التكنولوجيا محل الارهاب ، بأن مجتمع الوفرة يشدد قبضته على الانسان ، بوسائل علمية حديثة ، بعضها منظور وبعضها غير منظور ، واخطر من كل هذا انه يجعل الانسان يقبل الاستبداد مقابل بضع بضائع استهلاكية .

اذن فى الامر خدعة . . وخدعة كبيرة .

لان المصالح الرأسمالية الكبرى تستطيع ــ بالتكنولوجيا ــ أن تخدع العمال وصغار الناس .

فالتكنولوجيا تقوى السلطة .

والجائعون للسلطة يسعون لتقوية التكنولوجيا لخدمة سلطاتهم ، وتقويتها ، لا لخدمة المستهلكين والمنتجين من عامة الناس .

انهم يستغلون هذه الوسائل العصرية لاضعاف النقد ، والروح النقدية ، ثم الغاء النقد تماما .

بل ويقول ماركوس ان الجائعين للسلطة ، أو المسيطرين عليها ، انما يسعون الى الغاء الذاكرة تماما .

وبهذا تتم لهم السيطرة على البشر .

اذن ، فالقضية الخطيرة التى يطرحها ماركوس هى ارتباط السلطة بالتكنولوجيا .

كيف ان هذه التكنولوجيا التي يؤمنون بها ، انما هى وسيلة للسيطرة على البشر ، لا وسيلة للرفاهية . وعلى الاصح السعادة الحقيقية .

لان السعادة الحقيقية هى ان يكون للانسان ابعاد عديدة .

أن تكون له حياة ، ووجهة نظر ، وروح نقدية .

أما هذه التكنولوجيا الواقعة تحت سيطرة المصالح . ولمصلحة السيطرة ، فانها تجعل الانسان انسانا له بعد واحد .

انها « تبطظه » تماما .

وهذه هي الغربة الجديدة التى تهدد حضارة الانسان الحديث . ولكن السؤال :

ــ هل ينتقد ماركوس النظام الصناعى التكنولوجى . أو مجتمع الوفرة ، رغبة فى العودة الى الليبرالية .

أى العودة الى اضعاف الدولة ، كما كانت امريكا فى بداية نشأة الصناعة ، حين كان الامريكيون يرفعون شعار الفردية التامة ، وابعاد سلطة الدولة عن التدخل فى أى شأن من شئونهم الاقتصادية والاجتماعية .

ان مثل هذا الاتجاه موجود ، منذ أول مدخنة ارتفعت فى عالم الصناعة .

بعض العمال كسروا المصانع ، انتقاما من اذلال الآلة « وهذه حركة انتشرت فى انجلترا فى بداية الثورة الصناعية » .

وبعض المفكرين دعوا ــ خيالا وحلما ــ الى التنصل من الصناعة ، والعودة الى الزراعة ، مثل شارل فرانسوا فورييه « فى القرن ١٩ » .

ولا تزال فى امريكا حتى الآن ، صيحات تطالب بالعودة الى الليبرالية القديمة .

ولكن هربرت ماركوس يوضح انه لا يدعو الى هذه الحلول .

لان مثل هذا الحل ، أى العودة الى الليبرالية الكاملة ، انما هو ردة بالمجتمع الامريكى ، لانه يعنى أن ترفع الدولة يدها عن المشروعات الاجتماعية ، والكفالة للعاملين .. الخ .

ويلاحظ ماركوس ، ان المجتمع الامريكي ينتقل من نفوذ المؤسسات الى وحدة المؤسسة .

أى الى الدولة الشمولية ؛ الشبيهة بالستالينية ، على الرغم من مظاهر الحرية . أو طقوس الحرية الفردية التى اشتهرت بها امريكا .

لان الدولة تزداد قوة ؛ والمصالح التى تسيطر على هذه الدولة تزداد قوة ، وذلك بفعل التكنولوجيا ، والادارة الحازمة الكفء التى تنتج عن استخدام العقول الالكترونية ، والتطور التكنولوجى الهائل .

ويدافع ماركوس – مؤقتا – عن تعدد المؤسسات ، لانها على الاقل تمنع من حدة المؤسسة الواحده التى تسيطر وتسير وتوجه كل شىء – بطريقة خفية من وراء ستار الدعاية والتليفزيون واجهزة توجيه الرأى العام .. الخ .

ويقول : ان سيادة القانون – حتى ولو كان القانون فى حد ذاته قيدا – خير فى النهاية من ان تصبح الحكومة خارج القانون ؛ أو فوق القانون ذاته .

ولكن ليست هذه هى النقطة .

ان النقطة الخطيرة هى أنه يلاحظ ان التكنولوجيا قد استطاعت أن تقيد النقد ، والروح الناقدة ، والخيال والحلم ، أو ما يسميه فلسفيا « روح الانسان الصاعدة » ، وبذلك « فالادارة » تستطيع أن تعرض على النقابة اتفاقا مع رأس المال ، والحزبان الحاكمان يتفقان على الاسس ويختلفان على التفاصيل .

ومعنى ذلك ان التطور الكيفى الذى تنبأ به ماركس ؛ من ان المجتمع الرأسمالى تجتمع فيه التناقضات بين ملكية وسائل الانتاج – وهى فردية – وبين طريقة الانتاج وهى جماعية ، هذا التطور الكيفى انما يصطدم بطريق مسدود .

نعم ..

نحن الآن فى ظروف الانتقال الى الاشتراكية ولكن المجتمع لا ينتقل

لماذا ؟ ..

انه التطور التكنولوجى فى خدمة المصالح الرأسمالية الكبرى وليس هذا فقط .

ان مايحدث فى امريكا يحدث فى أوربا ، واخطر منه . انه يحدث فى روسيا أيضا .

ففى أوربا ، لاتجـــد خلافا ـ اساســيا ـ بين حزب العمال وحزب المحافظين .

وفى المانيا الغربية نفس الظاهرة .

وحتى الاحزاب الشيوعية (الوطنية) فى فرنســا وايطاليا ، رغم قوتها ، لم تعد تمثل قوة متناقضة ، أو قوة نقدية تستطيع أن تفك هذه « الزمتــة » الاجتماعية ، « وهذا يفسر غضب بعض الشباب على الاحزاب اليسارية واليمينية فى نفس الوقت » .

وهنا يصل ماركوس الى أخطر مايحلله .

انهم يرفعون شعار الاشتراكيــــة ، ويجعلون العمال يخدمون البيروقراطية .

ويرفعون شعار الوطنيــــة ، ويجعلون العمال يخدمون المصالح الاقتصادية .

والازمة شاملة ، فى العالم كله ، وفى النظم الاجتماعية كلها .

ففى أى عصر تعيش ؟

أو على الاصح ، فى أى عصر تعيش الدولة الصناعية المتقدمة ، من أوربا الى روسيا الى امريكا ؟

انه عصر التكنولوجيا والحرب

وهـــذا هو سر أزمة التوقف عن التقـدم . أزمة اهدار الفرد بالتكنولوجيا الحديثة ، باسم الرفاهية ، وتوفير مواد الاستهلاك .

انها أزمة نقد ، وأزمة ثقافة ، وازمة سيطرة الاجهزة المسلحة بأخطر وسائل التكنولوجيا على الرأى العام ، وعلى الانسان .

انها غربة جديدة ، غير تلك الغربة التى تحدث عنهاكارل ماركس . غربة الانسان الجديد فى عصر التكنولوجيا والتقدم الآلى الحديث

وهذا هو العصر الذى يجعل دولة كبرى من دول الرفاهية ، تبدد ثرواتها فى اسراف جنونى ، وتعيش صناعتها على حروب ، متقطعة ، ولكنها مستمرة .

ان الآلة الحديثة تأكل أبناءها المساكين .

ويرد ماركوس على تلك الدعوى التى تحمس لها كثير من علماء الاجتماع الامريكيين من أصحاب نظرية « المجتمع المفتوح » مثـل

وليام سوردكين ويعنى به المجتمع المتطور الذى تنفتح ابوابه بواسطة الديمقراطية لكى يصعد العامل الفقير فى سلم المجتمع حتى يصبح مليونيرا كما تقول أسطورة المليونير نورد وتتفتح طبقات المجتمع ، فتهضم الافواج الآتية من الهجرة الاوربية ، لتستقر فى أمريكا : فوجا بعد فوج ، وهجرة بعد هجرة .

فأسطورة هذا المجتمع المفتوح تروى أن الايرلنديين والفرنسيين جاءوا الى أمريكا أول الامر ، ثم جاء بعدهم الالمان ، ثم سكان شرق أوربا .. وهكذا كان كل فوج يستقر ، ثم يفسح مكانا بعد ذلك للاقليات الاخرى الوافدة .

لكن ماركوس يفند هذه الاسطورة ويتهم المجتمع الامريكى . ويقول فى كتابه الانسان ، ذو الاتجاه الواحد . ان المجتمع المقفل يذيب « أبعاد » أو يكسر أضلاع الوجود الانسانى ، العامة ، والخاصة . لانه أصبح يستطيع استيعاب القوى والمصالح التى كانت تقاومه وتعارضه فى مبدأ الامر ، عند نشأة الرأسمالية .

وان هذا المجتمع أصبح يستطيع تعبئة الغرائز الانسانية ، ويستطيع التلاعب بها ، ويستطيع اخضاع العناصر المتفجرة ، أى المعادية له التى تكمن فى لاوعى الانسان .

بل والاخطر من ذلك أن القوى التى كانت من قبل تمثل قوى النفى ، والتى كان يصعب التحكم فيها فى المرحلة الاولى من تطور هذا المجتمع ، يصبح اكثر خضوعا ، وأسلس قيادا : بل تنقلب ذاتها الى قوى من عناصر التوحيد والذوبان !

وأخطر من ذلك — كما يقول ماركوس — أن اذابة القوى المتناقضة أصبح يمكن حدوثها دون حاجة الى ارهاب مكشوف .

فالديمقراطية (الرأسمالية) تستطيع بالتكنولوجيا ان تشدد قبضتها أقوى من قبضة الحكم المطلق .

والحرية « الموجهة » . والغرائز « المقهورة » تشترك فى عملية الانتاج ، مما يجعل العملية الانتاجية تخريبا .
« فالتخريب — مثلا » — فى فيتنام ، وتخريب الانسان ، والطبيعة والبيوت ، والاطعمة ، يسير جنبا الى جنب مع ذلك الاسراف (المربح) فى المواد الخام ، وذلك الاسراف فى تبديد قوى العمل ، وفى تلويث الهواء الطلق ، وتسميم المياه الجارية .

وهكذا ، فان مايلاحظه ماركوس هو ان شظف الاشتراكية

« الجديدة » لا يفترق عن وحشية العالم الرأسمالى فى الاسراف وتبديد القوى الاجتماعية .

« فالخشونة » فى الطرق العامة ، وساحات الرياضة ، وهتك شرف الكلمة والعدوان على الصور ، ورعونة السياسة (كل هذا الذى تعدى كل ما صوره القصاص أورويل فى عالمه المخيف) اهدار للانسان .

وهاتان الصورتان المتقابلتان جعلتا الانسان المعاصر يقول : لقد أصبح الشر شيئا عاديا . بل ويكاد الشر لايثير احدا . مع انه أصبح شرا فاضحا يفقأ العيون .

لقد أصبح هذا الشر «المعتاد» النقيض لروح الكلمة الشفافة . وروح الحركة الانسانية المتحررة ..

بل وأصبح هذا المجتمع المنغلق على نفسه ، فيفتح على الخارج . بالتوسع الاقتصادى ، والسياسى ، والعسكرى . حتى لم يعد يسهل التفرقة بين السياسة والتجارة ، بين المكانة الادبية والبحث عن الربح ، بين الحاجة والدعاية .

ونشأت الى جوار القيم الرأسمالية قيم ليست أقل خطرا ، فأصبحنا نشهد ما يشبه العلاقة الجنسية بين المواطن كمستهلك وبين « البضاعة أو السلعة المعروضة فى الاسواق » . وأصبحنا نشهد مايشبه تلك العلاقة أيضا بين الانسان والالات العدوانية ، وأصبحنا نشهد السوق الاستهلاكية الكبرى غارقة فى جماليات زائفة تروجها الدعاية والاعلانات .

ولا يرجع الخطأ — فى رأى ماركوس — الى مادية الحياة الصناعية الجديدة . بل يرجع الى « تقديس البضائع الاستهلاكية » .. واستغلال السلطة الحاكمة لفكرة رفع مستوى المعيشة ، واخضاع الغرائز الانسانية للتجارة والتبادل التجارى .

فماركوس — وكأنه يعود الى الانتصارات السابقة على الماركسية والتى وجهها الادباء والمفكرون للنظام الرأسمالى ، يتهم المجتمع الصناعى المتقدم ، بأنه يمنع الانتقال الكيفى ، أى « الوصول الى شكل اجتماعى يقوم على التعاون والتضامن لاقامة عالم طبيعى واجتماعى ولتحطيم السيطرة والعدوان » .

ويرى ماركوس ، وكأنه يعود الى نفس تحليل فرويد للقيم الجمالية من أن الجمال والراحة والتناسق هى حاجات انسانية عضوية ، ولكن قهر النظام الصناعى المتقدم وتلاعب هذا النظام

بالقيم الجنسية والجمالية يخلق جوا من البطولة المزيفة ، والقوة الاسنفزازية ، والقسوة الوحشية » فتصبح القوى الانتاجية مجرد تراكم للعمل ، ويصبح هدف التجارة هو الاعتداء على الطبيعة وهتكها .

وقد وجهت انتقادات عديدة لتفكير ماركوس منها أنه يغفل تصوير التناقضات التى توجد داخل هذا النظام الصناعى المتقدم، ولكنه ينعى ويصر على أن الطبقة العاملة فى هذا النظام لم تعد تمالك نفس الحرية ، ولا القدرة على الانتقال بالمجتمع الى التغيير الكيفى . « صحيح انه توجد معارضات ضد أحوال العمل ، وضد الطفيلية : وضد انخفاض مستوى الانتاجية » ولكن هذه المعارضة معزولة داخليا وخارجيا .

وستبقى هذه المعارضة محصورة فى الاطار الاقتصادى ، أى تتركز على المطالب الاقتصادية وبالتالى فانها تخضع فى النهاية للنظام نفسه .

ويلاحظ ماركوس فى كتابه «الرجل ذو الاتجاه الواحد» أن أبناء الطبقة العاملة هم الذين يحتلون — على مر الايام والتطور — مراكز التحكم فى عملية الانتاج ويستطيعون ايقاف التطور . لان ابناء الطبقة العاملة هم الذين يصبحون فى المستقبل التكنوقراطيين والعلماء ، والمهندسين والاخصائيين . وبمعنى آخر ، فان فرصة الانتقال بهذا المجتمع انتقالا كيفيا ، هى فرصة تتضاءل ما دامت مستمرة فى انتاج مزيد من الزبد والمدافع فى نفس الوقت ، ومادامت مستمرة فى تطور وسائل التحكم الشامل فى الرأى العام ، واللعب به بأجهزة الاعلام وغيرها .

ولهذا السبب ، فوجىء ماركوس بأن الطلبة هم الذين تبنوا افكاره : واذاعوا كتبه ، فعاد يقول ان الطلبة فى أنحاء العالم هم الفئة التى لم ترتبط بعد بعجلات الانتاج والمصالح الاقتصادية والتنازلات التى قضت على الامل الكبير فى تغيير المجتمع تغييرا كبيرا . .

وكأن ماركوس يعود أيضا الى الخياليات الطوبوية ، بل ان له كتابا حديثا عنوانه « نهاية الطوبويات » — بالفرنسية — وهو ينادى بأن يعود المفكرون الى الطوبوية ، والى انشاء علم انسانى جديد هو علم الحريات ؛ وكأننا نسمع أصداء أفكار سان سيمون المفكر الاشتراكى الخيالى حين دعا الى موسوعة انسانية جديدة ، والى ديانة جديدة هى ديانة السلم والايمان بالتقدم .

ويرى ماركوس ان الحاجة شديدة الى انشاء انتربولوجية جديدة لتكون دليلا للحياة العملية ، وتكون علما بذاته ، يدور حول الاحساس الحيوى بالحرية . وحول الحاجات اللازمة لهذه الحرية .

ويقصد بهذه الحرية الجديدة الاتكون حرية مقيدة بالعمل المغرب أى الخاضع للقهر ، والاستغلال ، والحاجة ، والشظف . حرية تقوم على اخلاقيات جديدة تنتهى من الاخلاقيات السائدة منذ قرون طويلة ، وكأننا نجد فى هذه الكتابات أصداء لكتابات فوريية الاشتراكى الخيالى الفرنسى حين يطالب بتحرير العمل من القهر ، واعتباره مصدرا متنوعا ومتجددا للسيادة ، بانشاء نظام الفلانسينر والمدن والحدائق ، واجتماع العاملين فى مدن صغيرة غارقة فى الحدائق والغاء الخدم ، وأن يكون من حق المشتركين فى المدينة تغيير اعمالهم من فترة الى أخرى ، حتى لا يصبح العمل تكرارا وروتينا يفقد العمل بهجته وجدته .

وقد يبدو أن بعض الافكار فيه معادة ، كتبها كتاب يساريون فى انتقاد النظام الرأسمالى الامريكى ، أو كتبها غاضبون على الاحزاب اليسارية أو اليمينية فى أوربا ، أو رسمها قصاصون عن الحكم بالارهاب ، قبل الحكم بالتكنولوجيا ، لكن الجديد فى هذا الكتاب هو انه شامل لكل هذه النظم ولكل المحاولات الاجتماعية المعاصرة . . وهذا هو سر خطورته .

ولهذا أصبح انجيل الغاضبين من الشبان .
وكان شباب أوربا أعنف الغاضبين ، وشباب أمريكا أهدأ الغاضبين وقد يرجع هذا الى ضعف التكنولوجيا او قوتها فى العالم القديم والعالم الجديد !

لكنها صرخة فكرية سيكون لها أثرها البعيد .
انها تنبه الى أن الدعوة الى التطور والتقدم يجب ألا يكون غاية فى حد ذاته ، والدعوة الى التقدم العصرى والتكنولوجى يجب الا تكون تمهيدا لتشديد سيطرة الادارة ، وهضم النقد ، واهدار الحرية .

فلابد أن يكون التقدم وسيلة لا غاية حتى توضع التكنولوجيا فى خدمة الانسان ، والنقد ، والحريات ، لا لتكون لعنة على النقد والحريات . .



اشتراكات كتاب اليوم

البريد العادى :

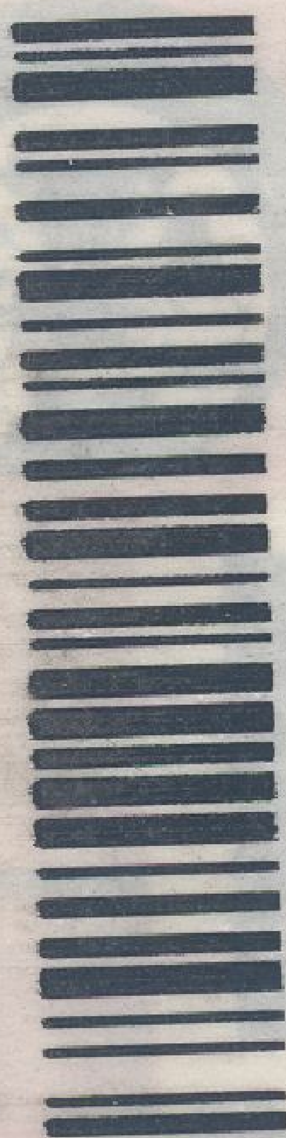
		مليم جنيه	
المجموعة الاولى	:	۱٫۰۰۰	ج٠ع٠م واتحاد البريد العربى
المجموعة الثانية	:	۱٫٥٠٠	باقى دول العالم

البريد الجوى :

		مليم جنيه	
المجموعة الاولى	:	۱٫۲٥٠	(سوريا ـ لبنان ـ الاردن)
المجموعة الثانية	:	۱٫٥٠٠	(دول اتحاد البريد العربى)
المجموعة الثالثة	:	۳٫۰۰۰	(دول أوربا)
المجموعة الرابعة	:	٥٫٥٠٠	(أمريكا الشمالية ـ الهند ـ دول جنوب أفريقيا)
المجموعة الخامسة	:	٦٫٥٠٠	(أمريكا الجنوبية ـ اليابان)

ترسل القيمة الى الاشتراكات ٣ (أ) شارع الصحافة بالقاهرة ـ تليفون ـ ٧٧٧٧٧ ٧٧٨٦٠




Bibliotheca Alexandrina
04779024

